

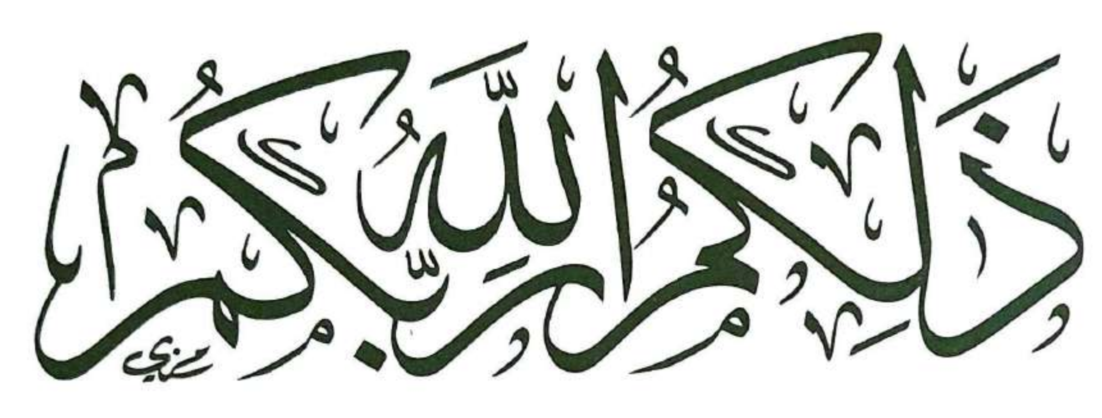
ذلكم الله ربكم

معالم للدعاة والمربين للعناية بتعظيم الله تعالى

إعداد

الإدارة العلمية

الطبعة الأولى



مَعالم للدُّعاةِ والمربّين للعنايةِ بتعظيمِ اللهِ تعالى

إعداد

الإدارة العلمية

الطبعة الأولى

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

شركة معالم التدبر للتعليم
ذلكم الله ربكم. / شركة معالم التدبر للتعليم .- الرياض ، ١٤٤٢هـ
٩٦ ص ؛ ..سم

ردمك: ٢-٢-٩١٤٣٢-٦٠٣-٩٧٨

١- الله جل جلاله ٢- الألوهية أ.العنوان
ديوي ٢٤١ ١٤٤٢/٢٢١٨

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٢٢١٨
ردمك: ٢-٢-٩١٤٣٢-٦٠٣-٩٧٨

الإخراج الفنِّي



الطبعة الأولى



الرياض - حي المغرزات
٠١١٤٥٤٤٧٦٣
malem@tdabbor.com
٠٥٥٧٢٦١٩٩٩

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، أهلِ الثناء والتعظيم، وصلى الله وسلم على خاتم النبيين، أعرفِهم بالله العظيم، إمام المتقين، وأكملهم له في التعظيم، وعلى آله وصحبه أفضل صلاةٍ وأتمّ تسليم؛ أما بعد:

فالله هو العظيم؛ شَهِدَ بذلك لنفسه، وشهدت رسله وملائكته، وآياته المتلوة وآياته الكونية المشهودة، وعباده المؤمنون، بل أحوال المخلوقات جميعًا.

والله تعالى عظَّم نفسه، وعرَّف خلقه بعظمته، وذكر أنواعًا من ذلك في كتابه، وفي آية الكرسي -التي هي أعظم آيةٍ في كتاب الله- ذَكَرَ عظمته تعالى في ربوبيته وملكه، وافتتحها باسمه وتوحيده؛ قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة].

وكان مِن شأن الرسل تذكيرُ من ضلَّ بعظمة الرب عز وجلَّ! بدءًا من أولهم نوح عليه السلام، إذ قال منكرًا على الذين يعدلون بالمعبود حبًّا وتعظيمًا: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح]، وقارًا؛ أي: عظمة[1].

(١) هذا هو التفسير الذي أثبته البخاري في صحيحه (٦ / ١٦٠)، وذكره ابن كثير في تفسيره (٨ / ٢٣٣).

والتعظيم أيضًا كثيرٌ في أقوال الصحابة والأئمة والصالحين، وكما يظهر في الأقوال فإنه يظهر في الأفعال، فكل طاعةٍ في السماء والأرض فهي من آثار تعظيم الله تعالى، وكل ذنبٍ فهو من نقص تعظيم الله تعالى.

وإن عظمة الله جلَّ في علاه لا يحيط بها شيء، ولا يَقدُرُ قدرها إنسٌ ولا جانٌّ، ومِن حقِّه علينا بذلُ الجهد في التعرُّف عليه، وتعريفه إلى الناس، ومهما وقع في القلوب من إجلالٍ وهيبةٍ فالله تعالى فوق ذلك كله، سبحانه وتعالى.

وفي الوقت الذي تتكاثر فيه الصوارف والمشغلات، ويضعف فيه تركيز البشر على ما بين أيديهم، فضلًا عن التأمل في عظمة الله وآياته؛ يجدر بالداعية والمربي العنايةُ بهذا الجانب، وتنميتُه في نفسه أولًا، ثم في نفوس مَن يوجِّه إليهم خطابَه، أو يمارس معهم دور المربي أو الناصح.

ومن الناس مَن يسلك طرقًا مختلفةً لإصلاح الناس، كأن يدعوهم عن طريق إثارة حميتهم وغيرتهم وما يُحصِّلونه بالطاعة من حظوظٍ في الدنيا ونحو ذلك -وبعض هذا مقبول- لكنه يغفل أن يُعظِّم الله تعالى في نفوسهم، ولهذا قلَّما يستجيبون حقًّا، وإن استجاب بعضهم فقلَّما يستمرون، فمن أولى ما اشتغل به الدعاة والمربون أن يُعرِّفوا الناس بالله ربهم، ويزيدوا من عظمته في نفوسهم، فإن المعظِّم لأي أحدٍ يضمُّ إلى تعظيمه هيبةً وإجلالاً ومحبةً، فمن عَظَّمَ الله سبحانه، هابه وأجلَّه وأحبه، وكفى بهذا داعيًا للمرء إلى طاعة الله، ومُرَغِّبًا له ومُرَهِّبًا في اتباع أوامر الله واجتناب نواهيه، في الفرائض والنوافل، مُتَلَمِّسًا رضاه ومُحبًّا له.

ولئن قال قائل: إن معرفة الله تعالى مغروسة في الفِطَرِ السويَّة، ولا تخفى على أحد، قلنا ما قاله ابن القيم رحمه الله تعالى: «معرفة الله سبحانه نوعان: الأول: معرفة إقرار، وهي التي اشترك فيها الناس، البَرُّ والفاجر، والمطيع والعاصي، والثاني: معرفةٌ توجب الحياءَ منه والمحبةَ له وتعلقَ القلب به والشوقَ إلى

لقائه وخشيتَه والإنابةَ إليه والأنسَ به والفرارَ من الخلق إليه»[١]، وهي التي ينبغي أن ندعو إليها ونربي الناسَ عليها.

ولو كان الناس يعرفون الله حقًّا لرأيت الحال غير الحال، ولرأيت اجتهادًا في الأعمال، ومسابقةً في الخيرات، وسعيًا إلى القُربات.

وبالجملة، فبتحقيق التعظيم الحق لله عز وجل تتحقق سعادة الدارين، وتنتقص كلما انتقص التعظيم، إلى أن تكون حياة المرء حياةً بهيمية، بل شرًّا من ذلك، خاليةً من كل فضيلة، ويوم القيامة تعظم الندامة!

ومن هنا كان هذا الكتاب الذي رُسمت ملامحه بالتعاون مع أصحاب الفضيلة القائمين على مشروع تعظيم الله تعالى، أحد مشاريع جمعية الدعوة والإرشاد وتوعية الجاليات بالنسيم في مدينة الرياض، ثم تولّت معالم التدبر إعداده وتحريره؛ رغبة في أن يسهم في غرس تعظيم الله في النفوس، ويذكر بأهميته وآثاره؛ ليكون حاديًا للدعاة، يحضّهم ويشُد على أيديهم، ودليلاً لكل مربٍ، مبتدئًا بنفسه، ومرشدًا لغيره.

هذا ومن يهدِ الله فلا مضل له، ومن يضلل الله فما له من هاد، وهو الموفق للسداد، والحمد لله رب العالمين.

ونودُّ في ختام هذه المقدمة الإشادةَ بعمل الشيخ إبراهيم الأزرق مُعِدِّ أصل هذه المادة، وقد بذل فيها جهدًا مشكورًا، سترى أثرَه بمشيئة الله في ثنايا هذا الكتاب.

معالم التدبر

(١) الفوائد لابن القيم (١ / ٢٤٨).

أهمية تعظيم الله تعالى:

حاجة الناس إلى تعظيم الله تعالى أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب والنَّفَس، وعلى العاقل أن يذكر في نفسه ويتذاكر مع إخوانه تفاصيل ذلك، فإنه قد يعلم أهمية ذلك على وجه الإجمال، ولكن الذي يقررها في نفسه، ويلهب عزمه لها هو دوام حضور ذلك في قلبه ومعرفة تفاصيله.

وهناك جملةُ أمورٍ تبيِّن مكان التعظيم، وسبب الكتابة فيه، وضرورة اشتغال الدعاة وطلاب العلم به، ومن ذلك:

أولًا: تعظيم الله عز وجل هو الأصل الذي تقوم عليه عبادة الله تعالى التي من أجلها خلق الخليقة وبرأ البرية، و«أصل دعوة جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم، إنما هي عبادة الله وحده لا شريك له، المتضمنة لكمال حبه، وكمال الخضوع والذل له، والإجلال والتعظيم، ولوازم ذلك من الطاعة والتقوى»[1]، و«العبادة لا تكون إلا بتعظيمٍ ومحبة»[2].

ولو لم يكن إلا هذا لكفى به داعيًا للدعاة وطلاب العلم وأصحاب الأقلام والفكر والثقافة إلى الاشتغال بتعظيم الله عز وجل، وتربية الناس عليه، ودعوتهم إليه.

ثانيًا: تعظيم الله عز وجل سبيل الرسل، فعامة دعوتهم لأقوامهم تصحيحٌ لمفهوم التعظيم وإرشادٌ إليه وحضٌّ عليه، وما من نبي إلَّا ودعا إلى تعظيم الله عز وجل، ولأجله بُعث؛ قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى

(١) الجواب الكافي لابن القيم (ص: ١٩٩).

(٢) منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٥ / ٢٣٢).

﴿ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ [الشورى]، قوله ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مُؤْذِنٌ بأنَّ مضمونَ السورةِ موافقٌ لما في تضاعيفِ سائر الكتبِ المنزَّلةِ على الرسلِ المتقدمةِ من الدعوةِ إلى تعظيم الله عز وجل الذي استهل جل وعز التنويه به في الآية التالية، وتقدَّم أن نوحًا عليه السلام دعا قومه إلى تعظيم الله، وكذلك سائر الرسل، ونحن -معشرَ الدعاة- على سَنَنِهم نسير.

ثالثًا: تعظيم الله عز وجل عصمة من الموبقات والذنوب المهلكات، وكلما قوي قويت العصمة؛ قال ابن القيم رحمه الله: «إن الله يعصم عبده بالخوف تارةً، وبالمحبة والإجلال تارةً، وعِصمة الإجلال والمحبة أعظم من عصمة الخوف، لأن الخوف يتعلق بعقابه، والمحبة والإجلال يتعلقان بذاته وما يستحقه تبارك وتعالى، فأين أحدهما من الآخر؟! ولهذا كان دين الحبِّ أثبتَ وأرسخَ من دين الخوف، وأمكنَ وأعظمَ تأثيرًا، وشاهِدُه ما نراه من طاعة المحب لمحبوبه، وطاعة الخائف لمن يخافه، كما قال بعض الصحابة: إنَّه ليستخرج حُبُّه مني من الطاعة ما لا يستخرجه الخوف»[1]، فمن أنفع ما يُربَّى عليه الناس لردعهم عن الفواحش والموبقات تعظيمُ الله في نفوسهم؛ محبةً وإجلالا، وخشيةً وخوفًا.

رابعًا: تعظيم الله عز وجل إذا قام بالقلب عظمت معه العبادات وتضاعفت الأجور، وعاد قليل العمل معه كثيرًا، يرجح بصاحبه على كثير ممن ضعف عندهم التعظيم، ولهذا قالوا في المفاضلة إن «ركعة من الأنبياء أفضل من ركعاتٍ كثيرة من غيرهم لكمالها في القيام بوظائف آدابها من التعظيم والإجلال والخضوع والخشوع، حتى كأنهم ينظرون إلى ربهم، وكذلك قيام ليلةٍ منهم أفضل من قيام ليالٍ كثيرة من غيرهم لما في عبادات الأنبياء من كمال التعظيم والإجلال، وما في عبادة غيرهم من النقص والإخلال، وكذلك أحوالهم ومعارفهم في حضورهم بغير استحضار ودوامها على مر الليالي والأيام»[2].

خامسًا: انتفاء تعظيم الله عز وجل من القلب هو أعظم ذنب يوجب دخول النار؛ قال عز وجل: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ

(١) بدائع الفوائد لابن القيم (١ / ٥٨).

(٢) انظر قواعد الأحكام في مصالح الأنام للعز بن عبد السلام (٢ / ١٩٢).

ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾﴾ [الحاقة]، بدأ بأقوى أسباب تعذيبه وهو كفره بالله، وهو تعليل مستأنف، كأن قائلا قال: لِـمَ يُعذَّب هذا العذاب البليغ؟ قيل: إنَّه كان لا يؤمن بالله المتفرد بالعظمة[1]، ومن أغفل قدر العظيم فحريٌّ أن يعذب العذاب العظيم، فقد أتى الذنب العظيم، والجزاء من جنس العمل.

سادسًا: يعيش الناس هذه الآونة عصرًا ماديًّا طغى فيه تعظيم أمر الدنيا، يفوق عند بعضهم تعظيم أمر العلم بالله تعالى وما ينبغي له! جهلًا بالله وما يترتب على ضعف تعظيمه، وتلك حال مُرْدية في الآخرة، مزرية بالدنيا، تجعلها تبحث مادة لا روح لها، ولا نور فيها، ولا مقصد أسمى لأصحابها، ما هي إلا وسائل مصالح شخصية، وذريعة رغبات ذاتية، تعنى بالجسد وتغفل الروح! لا تقيم حضارة وإن شيَّدت المنشآت! تستعمل فيما تطلبه شهوات النفوس ونزواتها كيف كانت، يُتبلَّغ بها إلى نيل الدنيا على حساب خسارة الآخرة! وهذه خلاف حال صدر هذه الأمة، الذين قوي عندهم تعظيم الله، فحيزت لهم الدنيا، وبلغوا منازلهم في الآخرة، أخذوا بأسباب الأولى فتبلَّغوا بها إلى إقامة حياة فاضلة، كفلت لهم سعادة الدنيا على أبلغ وجوهها مع سعادة الآخرة الأبدية.

وحال الناس تقتضي انتشالهم من هذا الخطر، وليس أبلغ في ذلك من دعوتهم إلى تعظيم الله عز وجل، فذلك الذي يضع الأمور في نصابها.

سابعًا: تعظيم الله عز وجل يعود على المعظِّم في نفسه بالنفع، فهو سبب لانشراح الصدر، وتمام التوكل، ومعرفة الركن الشديد الذي يُلْجَأ إليه ويُلاذ به، مع التسليم لما يقدره ويقضيه، والاطمئنان لأحكامه، قال ابن تيمية رحمه الله: «فنفس عبادة الله وحده ومحبته وتعظيمه هو من أعظم كمال النفس وسعادتها»[2].

---

(١) انظر البحر المحيط لأبي حيان (١٠ / ٢٦٢).

(٢) الصفدية لابن تيمية (٢ / ٢٣٤).

أثر التعظيم إذا وقر في القلب:

تعظيم العباد لله تعالى هو تعظيمٌ يرفع من شأنهم، لا ينتفع به ربهم الغني عز وجل، ولتعظيم الله عز وجل آثار تظهر على العبد وثمار يجتنيها، وفوائد تعود عليه في دينه ودنياه، فجماع الخير في تعظيم الله عز وجل، وذلك في أمر الدنيا والآخرة.

فإن التعظيم يوجب تحقيق العبودية ومجافاة المعصية، فعلى التعظيم تدور معظم الأصول الباعثة على العبادات القلبية والعملية، قال أبو عبدالله الواسطي: «مدار العبودية على ستة أشياء: التعظيم، والحياء، والخوف، والرجاء، والمحبة، والهيبة»[1].

ومعظم ما ذكره الواسطي رحمه الله تعالى يرجع إلى التعظيم كما ذكر أهل العلم، فالخوف راجع إليه، قال الإمام محمد بن نصر المروزي: «لا يضيِّع العبدُ المفْتَرَضَ عليه ويركب الكبائر إلا من قلة خوفه، وإنما يقل خوفه من قلة تعظيمه لله ووعيده، فقد ترك من الإيمان التعظيم، الذي صدر عنه الخوف»[2]، وقال رحمه الله: «إذا ثبت تعظيم الله في قلب العبد أورثه الحياء من الله والهيبة له، فغلب على قلبه ذِكْرُ اطلاع الله العظيم ونظرِه بعظمته وجلاله إلى ما في قلبه وجوارحه، وذِكْرُ المقام غدًا بين يديه وسؤالِه إياه عن جميع أعمال قلبه وجوارحه، وذِكْرُ دوام إحسانه إليه وقلة الشكر منه لربه، فإذا غلب ذكر هذه الأمور على قلبه هاج منه الحياء من الله، فاستحى من الله أن يطلع على قلبه وهو معتقدٌ لشيء مما يكره، أو على جارحة من جوارحه يتحرك بما يكره، فطهَّر قلبه

(١) انظر تفسير السلمي (٢ / ١٧٦)، والزهد الكبير للبيهقي (ص: ٢٨٩).

(٢) تعظيم قدر الصلاة (٢ / ٥١٨).

من كل معصية، ومنع جوارحه من جميع معاصيه، إذ فَهِمَ عنه قوله: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [يونس]، وقال: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ [يونس: ٦١]، وقال: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥]، وقال منكرًا على من استخف بنظره: ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ ﴾ [العلق]»[1]، وقال ابن القيم رحمه الله: «المحبة لها داعيان: الجمال، والجلال، والرب تعالى له الكمال المطلق من ذلك، فإنه جميلٌ يحب الجمال، بل الجمال كله له، والإجلال كله منه، فلا يستحق أن يُحَبَّ لذاته من كل وجهٍ سواه»[2].

وبهذا يظهر أن التعظيم أصلٌ في الخوف والهيبة والحياء والمحبة ولم يبق إلا الرجاء، ولا يرجى في كل ما يُؤمَّل إلا عظيمٌ قادر؛ نعم، ليس من شرط العظيم أن يرجى، فقد يُحاذَر وقد يكون ميؤوسًا منه، لكن لا يرجى في كل الأمور إلا عظيمٌ جوادٌ كريم.

فكلما قوي التعظيم في القلب وزاد تَرَقَّى العبد في مراتب العبودية، وجافى المعاصي، والعكس بالعكس، وإذا حقق التعظيم أحبه الله عز وجل، ورضي عنه، وأرضاه؛ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [البينة].

وهذه الجملة كافية عن إنشاء الكلام مفصلًا فيما اشتملت عليه من أمور تحدث عنها بعض الفضلاء في هذا الصدد وغيره.

وأمرٌ آخر، فإن التعظيم يوجب طمأنينة القلب، وقطع التعلق بالأسباب، والرضى بالقضاء، ولا شك أن من تحقق له ذلك عاش مطمئن النفس مرتاح الضمير في نفسه، مثبتًا أسباب الطمأنينة في غيره، وفوق ذلك، فإن من شهد مقام ربه ورعى نظره وعظَّم أمره لم يخش غيره تعالى، وأورثه ذلك قوةَ قلبٍ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقول الحق، وإن أصيب تحمَّل في ذات الله ما يصيبه، وفي ذلك صلاح المجتمع، وأخبار الأئمة والأعلام في هذا الباب كثيرة.

---

(١) تعظيم قدر الصلاة (٢ / ٨٢٦).

(٢) الجواب الكافي (ص: ٢٢٨).

والغرض هنا: ما يورثه تعظيم الله عز وجل من شجاعةٍ للمرء، وقوةٍ للقلب، وطمأنينةٍ للنفس، وبيان أن بركة تعظيم الله عز وجل متعدية، تُصلِح دنيا الناس أيضًا، فصاحب التعظيم يعظِّم الشرع، ويدعو إلى إقامته، ويحث على تحكيمه، والدعوة إلى هداه، فتصلح أمور المجتمعات بدعوته، وتستقيم حياة الناس بوجود أهل التعظيم بينهم، يأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر، ويجاهدون أهل الإفساد بألسنتهم، لا يخافون لومة لائم، وبذلك يُرْتَق الخرق، وتسلم السفينة، ويبلغ المجتمع بر الأمان.

قال أبو كعب: أردتُ سفرًا فأتيت الحسن البصري، فقلت له: أوصني قال: أعِزَّ أمرَ الله تعالى حيثما كنت يُعزّك الله عز وجل، قال: فحفظتُ وصيته فلم أزل عزيزًا حتى رجعت[1].

وفي المقابل، إذا ضعف التعظيم فقد ضعف ركن العبادة، وتهدَّم أصل الرضى والسعادة، ووهى طوق النجاة وقَصُر عن أن يغيث المجتمعات أو يرتفع بها عن معاني الحياة البهيمية، حيث يتوارى الحياء وتُوَلِّي الفضيلة، ويكون البقاء والحكم والرفاه للأقوى؛ هو الذي يفرض ما اشتهى ويقضي بما رأى، لا رب يُعظَّم حكمه، ولا إله يَخضع له خلقه، والنتيجة: لا دنيا ولا أخرى، ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الصافات].

ومَن ضعف تعظيمه لله عز وجل وتجرَّأ على محارمه فإنه يكسوه من الذل بحسب ذلك، قال الإمام الجليل ابن المبارك:

رأيت الذنوب تميت القلوب ويُتْبِعُها الذلَّ إدمانُها
وترك الذنوب حياةُ القلوب وخيرٌ لنفسك عصيانُها[2]

ومن مشهور ما يُذكر عن الحسن البصري قوله في العصاة: «إنهم وإن هملَجَت بهم البَراذين، وطَقْطَقَتْ بهم البغال، ووطئ أعقابهم الرجال، فإن ذل المعصية في رقابهم؛

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (ص: ٢٦)، وأحمد في الزهد (ص: ٢١٣)، وابن المقرئ في معجمه (ص: ٤٨) واللفظ له، ورواه أبو نعيم في الحلية (٢ / ١٥٢).

(٢) رواه ابن المقري في معجمه (ص: ٣٦٤) بسند جيد إليه، ورواه أبو نعيم في الحلية (٨ / ٢٧٩)، والبيهقي في الشعب (٩ / ٤٢٢) واللفظ له، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١ / ٦٣٧).

أبى الله إلا أن يُذل من عصاه»[1]، وكان من دعاء إبراهيم بن أدهم: «اللّٰهُمَّ انقُلْني من ذل معصيتك إلى عز طاعتك»[2]، وفي دعاء القنوت المشهور: «إنه لا يَذلُّ من واليت، ولا يَعزُّ من عاديت، تباركت ربنا وتعاليت»[3].

---

(١) رواه بنحوه الطبري في التاريخ (١١ / ٦٣٨) وأبو نعيم في الحلية (٢ / ١٤٩)، وهو مشهور بهذا اللفظ.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في التوبة (ص: ٦٩).

(٣) والحديث مشهور؛ رواه الطبراني وغيره؛ انظر المعجم الكبير (٣٢٧٠٠)، وهذا القدر مختلف فيه، صححه الحافظ، وقال الألباني: وبالجملة فهي زيادة صحيحة ثابتة لا شك فيها؛ انظر أصل صفة الصلاة (٣ / ٩٧٤)، وقال في صفة الصلاة (ص: ١٨٠): هذه الزيادة ثابتة في الحديث كما قال الحافظ في التلخيص.

معنى التعظيم وما يشمله:

التعظيم يفيد التفخيم والتكبير والتبجيل[1]. ومعنى تعظيم الله: تكثير نسبة العظمة إليه، فتعظيم الله نفسَه: تكثيرُه عظمته. والعَظَمَة صفة لازمة لذاته سبحانه، وهي من صفات أفعاله أيضًا.

والعظيم اسمٌ من أسماء الله الحسنى؛ قال تعالى: ﴿وَلَا يَئُودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة]، وهو الذي له معاني العظمة والكبرياء، في ذاته وأفعاله وأسمائه وصفاته، وله جميع معاني التعظيم من خواص خلقه. والعظيم من اتصف بصفاتٍ كثيرة من صفات الكمال[2].

ومن المتقرر عند أهل السنَّة أن كل اسمٍ له سبحانه تُشتَق منه صفة، فالعظيم صفته العظمة، قال قوَّام السنّة الأصبهاني رحمه الله: «من أسمائه تعالى: العظيم، والعظمة صفة من صفات الله لا يقوم لها خلق، والله تعالى خلقَ بين الخلقِ عظمةً يُعظَّم بها بعضُهم بعضًا، فمن الناس من يُعظَّم لمالٍ، ومنهم من يُعظَّم لفضلٍ، ومنهم من يُعظَّم لعلمٍ، ومنهم من يُعظَّم لسلطانٍ، ومنهم من يُعظَّم لجاه، وكل واحدٍ من الخلق إنما يُعظَّم لمعنًى دون معنى، والله عز وجل يُعظَّم في الأحوال كلها، فينبغي لمن عرف حق عظمةِ الله ألَّا يتكلم بكلمةٍ يكرهها الله، ولا يرتكب معصيةً لا يرضاها الله، إذ هو القائم على كل نفس بما كسبت»[3].

---

(١) انظر لسان العرب لابن منظور (١٢ / ٤١١)، والصحاح للجوهري (٥ / ١٩٨٨).

(٢) انظر معجم مصطلحات العلوم الشرعية لمجموعة من المؤلفين (٣ / ١١٢١).

(٣) الحجة في بيان المحجة لأبي القاسم إسماعيل بن محمد الأصبهاني المعروف بقوَّام السنة (١ / ١٤١ - ١٤٢).

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أمَّا الركوع فعظموا فيه الرب»[1]؛ أي: اجعلوه في أنفسكم ذا عظمة[2].

وقد جاء التصريح بصفة العظمة في نصوص ثابتة، ففي حديث الشفاعة المتفق عليه عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «فيقال: يا محمد؛ ارفع رأسك، وقل يُسمع، وسَل تُعطه، واشفع تُشفَّع، فأقول: يا رب ائذن لي فيمن قال: لا إله إلا الله! فيقول: وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأُخرجن منها من قال: لا إله إلا الله»[3].

وعند أبي داود وصححه الألباني من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «قال الله عز وجل: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما قذفته في النار»[4]. ذكروا في معناه أن العظمة والكبرياء صفتان من صفاته لا يشاركه فيهما غيره، ولا يتعاطاها أحد من خلقه، والملتحفُ بردائه والمؤتزرُ بإزاره لا يشاركه غيره في ذلك في تلك الحالة، فكذلك الرب تبارك وتعالى لا يشاركه أحد في عظمته وكبريائه سبحانه وتعالى[5].

وذكر البيهقي في كتاب الأسماء والصفات: «باب ما جاء في الجلال والجبروت والكبرياء والعظمة والمجد»، وساق فيه سبع آيات وخمسة عشر حديثًا[6].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٤٧٩).

(٢) تهذيب اللغة للأزهري (٢ / ١٨٢)، وانظر لسان العرب لابن منظور (١٢ / ٤٠٩).

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٧٥١٠) ومسلم في صحيحه (١٩٣).

(٤) رواه أبو داود في سننه (٤٠٩٢) وابن ماجه في سننه (٤١٧٤)، وابن حبان في صحيحه (٣٢٨)، والحاكم في المستدرك (٢٠٣) ووافقه الذهبي، وانظر تخريجه في السلسلة الصحيحة للألباني (٥٤١)، وهو في صحيح مسلم (٢٦٢٠) بلفظ: «العز إزاره والكبرياء رداؤه فمن ينازعني عذبته» وفي بعض ألفاظه: والعظمة إزاري أو إزاره، كرواية أبي داود، انظر علل ابن أبي حاتم (١٧٩٥)، وعلل الدارقطني (١٥٧٧).

(٥) انظر معالم السنن للخطابي (٤ / ١٩٦)، وإيضاح الدليل لبدر الدين ابن جماعة (ص: ١٨٦)، وانظر بيان تلبيس الجهمية (٦ / ٢٧٠ - ٢٧٧)، وفتاوى اللجنة الدائمة - المجموعة الثانية (٢ / ٣٩٩).

(٦) انظر الأسماء والصفات للبيهقي (١ / ٣٣٨ - ٣٤٨).

والحديث عن عظمة الله جل وعز حديثٌ في الجلال، يدخل فيه ذكر كثيرٍ من صفات العظمة مثل القدرة والقوة والكبرياء والجبروت والملك ونحوها.

وتعظيم الله تعالى يشمل كل أوجه التعظيم اللائقة بجلاله، كما قال ابن القيم رحمه الله:

وهو العظيمُ بكلِّ معنى يُوجِبُ التْ   تعظِيمَ لا يُحصيه من إنسان[1]

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله تعالى معلقًا عليه: «يريد أن الله تعالى عظيم، له كل وصف ومعنى يوجب التعظيم، فلا يقدر مخلوق أن يثني عليه كما ينبغي له، ولا يحصي ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليه عباده».

وقال رحمه الله: «اعلمْ أن معاني التعظيم الثابتة لله وحده نوعان:

أحدُهما: أنه موصوفٌ بكل صفة كمال، وله من ذلك الكمال أكملُه وأعظمُه وأوسعُه، فله العلم المحيط، والقدرة النافذة، والكبرياء والعظمة، ومن عظمته أن السماوات والأرض في كفِّ الرحمنِ أصغرُ من الخردلة كما قال ذلك ابن عباس وغيره، وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [فاطر:٤١]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ الآية [الشورى: ٤ - ٥].

وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم: "إن الله يقول: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما عذبته"[2]، فلله تعالى الكبرياء والعظمة؛ الوصفان اللذان لا يُقدَّر قدرُهما ولا يُبْلَغُ كُنْهُهُما.

النوع الثاني من معاني عظمته تعالى: أنه لا يستحق أحدٌ من الخلقِ أن يُعظَّم كما يُعظَّم الله، فيستحقُّ جل جلاله من عباده أن يعظموه بقلوبهم، وألسنتهم، وجوارحهم، وذلك ببذل الجهد في معرفته ومحبته، والذل له والانكسار له، والخضوع لكبريائه، والخوف

---

(١) نونية ابن القيم: الكافية الشافية (ص: ٢٠٣).

(٢) تقدم تخريجه في الصفحة السابقة.

منه، وإعمال اللسان بالثناء عليه، وقيام الجوارح بشكره وعبوديته، ومن تعظيمه: أن يُتَّقى حقَّ تُقاتِه؛ فيُطاع فلا يُعصى، ويُذكر فلا يُنسى، ويُشكر فلا يُكفر، ومن تعظيمه: تعظيم ما حرَّمَه وشرعَه من زمانٍ ومكانٍ وأعمال: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ٣٢﴾ [الحج]، و﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠]، ومن تعظيمه: ألَّا يُعترَض على شيءٍ مما خلقه أو شرعه»[١]، وبالجملة:

فهو الجليل فكل أوصاف الجلا ل له مُحَقَّقَةٌ بلا بطلان
وهو المجيد صفاتُه أوصافُ تعـ ظيمٍ فشأنُ الوصف أعظم شان[٢]

مما يدخل في النوع الأول: عظمة كلمات الله عز وجل وأفعاله ومخلوقاته

كلمات الله عز وجل الشرعية تضمنت من الأحكام والشرائع الحكيمة الصالحة المصلحة ما يدل على عظمته سبحانه:

فالله أكبر تعظيمًا لعزَّتِهِ سبحانه وتعالى منزل السورِ[٣]

ومن كلامه سبحانه: القرآن؛ كتابه الخاتم المنزل، وقد عظَّمه ربنا عز وجل حيث قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ٨٧﴾ [الحجر]، وقال سبحانه: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ١﴾ [ق]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ٥﴾ [المزمل]، وقال: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ١﴾ [ص]، أورد الطبري رحمه الله عن غير واحد من أهل العلم أن المراد بـ«ذي الذكر» في هذه الآية: «ذي الشرف»[٤]، وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ٤٤﴾ [الزخرف]؛ أي: لَشَرَفٌ له ولقومه[٥]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ١٠﴾ [الأنبياء]، وقال سبحانه: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا

(١) الحق الواضح المبين للشيخ عبد الرحمن السعدي (ص: ٢٧ - ٢٨).

(٢) نونية ابن القيم: الكافية الشافية (ص: ٢٠٣).

(٣) بيت من قصيدة لابن الجياب الغرناطي، ومطلع القصيدة: الحمد لله حمدًا زاكي الأثر.

(٤) تفسير الطبري (٢١ / ١٣٩ - ١٤٠).

(٥) انظر تفسير ابن كثير (٧ / ٢٢٩).

﴿ٱلْمُطَهَّرُونَ (٧٩)﴾ [الواقعة]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٣)﴾ [الحاقة]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ (٤١) لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢)﴾ [فصلت]، والإخبار منه عز وجل بعظمة القرآن في آيات كثيرة.

والقرآن هو آخر ما بلغ البشرية عن الله عز وجل، وأثبت وأنفع وأصلح وأكمل وأعظم، وهو كلامه المتضمن طلبَه الذي من تعظيم الله الإقبالُ عليه وامتثالُه، وخبرَه الذي من تعظيم الله تصديقُه والاعتبارُ به، وقد ذكر بعض العلماء في تعظيم القرآن الكريم خمسين أدبًا وأكثر(١).

وكذلك كلمات الله الكونية وأفعاله العجيبة تدل على عظمته، وذلك فيما تتضمنه من الحكمة البالغة، وما فيها من القدرة النافذة؛ قال عز وجل: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (١١٧)﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٤٠)﴾ [النحل]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٦٨)﴾ [غافر]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣)﴾ [يس].

وكذلك مخلوقات الله شاهدةٌ على عظمته، إما باعتبار حكمتها أو باعتبار إحكامها، كالعجائب في دقيقِها وجليلها، وما فيها من الإتقان والصنع البديع؛ تأمل في السماء وانظر إلى الأجرام الكبار من الأفلاك إلى المجرات وأعمدة الخلق، ثم قلِّب البصر وتأمل في إحكام أصغر المخلوقات، وآثار ما لا يرى بالعين من المجهريات؛ ترى براهين العظمة ملء أعين البصائر!

تأمل في نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك
عيونٌ من لجين شاخصاتٌ ... بأحداقٍ كما الذهب السبيك
على قُضُبِ الزَّبَرْجَد شاهِداتٌ ... بأنَّ الله ليس له شريك(٢)

---

(١) كما في شعب الإيمان للبيهقي (٣ / ٣٢٧ - ٣٣٠).

(٢) أبيات لأبي نواس؛ انظر كتاب أحسن ما سمعت لأبي منصور الثعالبي (ص: ١٠).

وقد قيل: إذا المرء كانت له فكرة، ففي كل شيء له عبرة!

وكثيرًا ما يُمجِّد الله عز وجل نفسَه بذكر مخلوقاته الدالة على عظيم اقتداره؛ قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ۝٤ وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾ [الملك]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ۝١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ۝١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ۝٢٠﴾ [الغاشية]، وقال تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٢١﴾ [الذاريات].

مما يدخل في النوع الثاني من استحقاق الله عز وجل للتعظيم: تعظيم النبي وأتباعه

مما يستحقه الله عز وجل من التعظيم تعظيمُ نبيه صلى الله عليه وسلم وأنبياء الله الذين أرسلهم، فتعظيم الرسل من تعظيم الـمُرسِل، وذلك أنه «لم يُسم مُرسلًا إلَّا تشبيها برسل الملوك إلى رعاياهم، مخبرين بأمرهم ونهيهم، ولم يُوجب عليهم طاعتهم إلَّا بعد مساوقة[1] تعظيمهم لتعظيم الـمُرسِل عندهم، فمن تعظيم النبي وجوب طاعته، والصلاة عليه، وترك الجهر عليه بالقول»[2].

وحقُّ النبي صلى الله عليه وسلم أن يعظَّم تعظيمًا يزيد عن قبول قوله والإذعان لحكمه والتصديق له إلى الحب والإجلال والتوقير؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝١٥٧﴾ [الأعراف]، وقد أخطأ من ظن أن حق النبي صلى الله عليه وسلم الطاعة والتصديق وأغفلَ أن يكون أحب إليه من كل قريب، وأجَلّ

(١) المساوقة: المتابعة، كأن بعضهم يسوق بعضًا؛ انظر النهاية لابن الأثير (٢ / ٤٢٣).

(٢) حجة الله البالغة للدهلوي (١ / ١٣٤).

في عينيه من كل إنسان، «وقد تواتر تعظيم الصحابة رضوان الله تعالى عليهم للنبي صلى الله عليه وسلم إلى غايةٍ حتى بهر الأعداء»[1]، وأثبتوا في ذلك شتى أنواع التعظيم اللائق به عليه الصلاة والسلام.

ومن تعظيمه صلى الله عليه وسلم تعظيم سنته، بتقديمها على الآراء والأهواء، والعناية بها تعلمًا وتعليمًا، والحرص على ألا يُدْخَل فيها ما ليس منها، مع التحرز من رد ما هو منها.

ومن تعظيم الله تعالى أن يقع تعظيم النبي عليه الصلاة والسلام دون تجاوزٍ في الإطراء، يخرج بالـمُطري إلى ضروب من الشرك، وذلك التزامًا لأمره وتعظيمًا لقوله صلى الله عليه وسلم: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله»[2]، وللنصوص المتضافرة على أن ما كان حقًّا لله محضًا أو كان به مختصًّا فلا يجوز أن يُخلَع على غيره أو يُرفَع سواه إليه، أو يُسوَّى فيه به سبحانه وتعالى.

ويتبع تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم تعظيمُ أصحابه رضي الله عنه وتوقيرهم وإجلالهم -وهذا مما اتفق عليه أهل الحق- ثم تعظيم أعلامِ السلف من بعدهم وأئمةِ الإسلام والتابعين لهم بإحسان، ومعرفة قدر رأيهم واختيارهم، وتلافي الجرأة عليه أو مخالفته بأقوالٍ ربما استحسنها المتأخر وليس له فيها قدوةٌ أو إمام!

ومما يستحقه الله عز وجل من التعظيم إجلالُ من عنوا بالوحي كتابًا وسنة وبذلوا أوقاتهم فيه، فكلام الله يُعظِّم حاملُه، ويُرفَع من قدر صاحبه، ومن تعظيم أهل القرآن تقديمهم في الصلاة: «يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله»[3]، ومن ذلك تقديمهم في القبور عند اشتراكهم مع غيرهم فيها[4]، وقد قال عمر رضي الله عنه لنافع بن عبد الحارث لما

(١) الآداب الشرعية لابن مفلح (١ / ٢٢٥)، وانظر صفة الصفوة لابن الجوزي: ذِكْرُ تعظيم الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم وحبهم إياه (١ / ٧٣).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٣٤٤٥).

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٦٧٣).

(٤) في صحيح البخاري (١٣٤٣) من حديث جابر قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يجمع بين الرجلين من قتلى أُحد في ثوبٍ واحد ثم يقول: أيُّهم أكثر أخذًا للقرآن، فإذا أشير له إلى أحدهما قدَّمه في اللحد.

لقيه بعُسْفانٍ وكان واليًا لعمر رضي الله عنه على مكة: من استعملت على أهل الوادي؟ فقال: ابن أَبْزَى، قال: ومن ابن أَبْزَى؟ قال: مولى من موالينا، قال: فاستخلفت عليهم مولى؟ قال: إنه قارئٌ لكتاب الله عز وجل، وإنه عالمٌ بالفرائض، قال عمر: أمَا إن نبيكم صلى الله عليه وسلم قد قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا، ويضع به آخرين»[1].

ومن ذلك أيضًا إجلالُ من شاب في الإسلام، وإجلالُ من اشتغلوا بإقامة شرع الله وبسط سلطانه، وفي الحديث: «إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط»[2]، ومن عظَّم الله حريٌّ بأن يُعظَّم.

وكل هذا مما ينبغي أن يمتثله القدوة في نفسه، ويُظهره لمن يقتدي به، ويبين سببه وأثره وأهميته، ليكون أبلغ في الأثر.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٨١٧).

(٢) رواه أبو داود في سننه (٤٨٤٥)، وحسَّنه النووي في رياض الصالحين (ص: ١٣٠)، والألباني في صحيح الأدب المفرد (ص: ١٤٣)، ورواه ابن المبارك في الزهد (١ / ١٣٠) موقوفًا على أبي موسى الأشعري.

صور تعظيم الله تعالى:

أصل التعظيم عملٌ قلبي[1]، وأصله من العلم بالله تعالى، لكن «لا بد أن يقترن بالعلم في الباطن مقتضاهُ من العمل الذي هو المحبة والتعظيم والانقياد ونحو ذلك»[2] ليكون نافعًا، وإلا فإن إبليس وأناسي كثيرًا عرفوا الحق واستهانوا به وعادوه! وكثيرًا ما يُحَثُّ الناس على مقام العلم -أو المعرفة أو الثقافة أو نحوها- دون مقام التعظيم لله تعالى، فيضعف بذلك نفع العلم؛ بل ربما عاد وبالًا على صاحبه.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: «أصل الدين مبنيٌّ على تعظيم الله وتعظيم دينه ورسله»[3].

وصور تعظيم الله كثيرة، وهي على على مراتب، وليس المقصود هنا الاستقصاء وذكر الأحكام، بل ذكر أشهر الأمور التي يُعظَّم بها الله تعالى.

أولًا: امتثال الكتاب والسنة.

«الذي يستقيم به القلب تعظيم الأمر والنهي، وهو ناشئ عن تعظيم الآمر الناهي، فإن الله تعالى ذم من لا يعظم أمره ونهيه؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح]،

---

(١) انظر الاستقامة لابن تيمية (٢ / ٣١٠)، وانظر الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي (ص: ٧٨).

(٢) الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٦ / ٥١٨).

(٣) تفسير السعدي (ص: ٣٤٣) على آية التوبة: ٦٦.

قالوا في تفسيرها: ما لكم لا تخافون لله تعالى عظمة... وأول مراتب تعظيم الحقِّ عز وجل تعظيمُ أمره ونهيه، وذلك لأن المؤمن يعرف ربه عز وجل برسالته التي أرسل بها رسوله صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة، ومقتضاها الانقيادُ لامره ونهيه، وإنما يكون ذلك بتعظيم أمر الله عز وجل واتباعه، وتعظيم نهيه واجتنابه، فيكون تعظيم المؤمن لأمر الله تعالى ونهيه دالًّا على تعظيمه لصاحب الأمر والنهي، ويكون بحسب هذا التعظيم من الأبرار المشهود لهم بالإيمان والتصديق، وصحة العقيدة، والبراءة من النفاق الأكبر»[١].

وجاء عن بشر الحافي قوله: «لو تفكَّر الناس في عظمة الله لما عصوه»[٢].

وفي المقابل كلما ضعف تعظيم الله ترادفت الهنات، وتتابعت الزلات، وقلَّت المبالاة، حتى يبلغ العبد مبلغًا يستمرئ معه الفواحش، ويألف المناكر، ويشرب قلبه حبَّ ما يحف بالنار من الشهوات، ويصدق عليه قول الله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [محمد].

والمسلم قد يرتفع عنه التعظيم وتغلبه نفسه فيقع في المخالفة، ثم يتفاوت الناس في الندم بحسب الإيمان الباقي، وما يَمُنُّ الله به على صاحبه، كما جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذُبابٍ مرَّ على أنفه فقال به هكذا»؛ قال أبو شهاب -أحد الرواة- بيده فوق أنفه[٣].

ولهذا لما كان الصحابة رضي الله عنهم أكمل تعظيمًا لله عز وجل ممن سواهم، كان تعظيمهم للمخالفة أعظم، قال عنهم أنس رضي الله عنه: «إنكم لتعملون أعمالًا هي أدق في أعينكم من الشَّعَر! إنْ كُنَّا نَعدُّها على عهد النبي صلى الله عليه وسلم الموبقات»[٤]، و«ليسوا يعنون أن الكبائر التي كانت على عهد النبي صلى الله عليه وسلم

(١) الوابل الصيب لابن القيم (ص: ٨ - ١٠)، وانظر تفسير الآية عند الطبري (٢٣ / ٢٩٥) عن ابن عباس ومجاهد.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٨ / ٣٣٧).

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٦٣٠٨).

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٦٤٩٢).

صارت بعده صغائر! ولكن كانوا يستعظمون الصغائر لعظمة الله تعالى في قلوبهم، لعظيم نور الإيمان»[1].

والذنب يَعظُم في عين العبد بحسب معرفته بالله، التي هي أصل تعظيمه، جاء عن سيد التابعين أويس القرني رحمه الله قوله: «لا تنظر في صِغَر ذنبك، ولكن انظر مَن عصيت! فإن صغَّرت ذنبك فقد صغَّرت الله، وإن عظَّمت ذنبك فقد عظَّمت الله»[2]، وأخذه بعضهم فقال: لا تنظر إلى صغر الخطيئة، وانظر إلى كبرياء من واجهته بها، فإنما عَظُمت الذنوب من تعظيم المواجه بها، وكَبُرت في القلوب لمشاهدة ذي الكبرياء ومخالفة أمره إليها، فلم يصغر ذنب عند ذلك، وكانت الصغائر عند الخائفين كبائر، وهذا أحد الوجهين في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠]، وقوله: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج]، قيل: الحرمات تَعظُم في قلبه فلا ينتهكها[3].

ثانيًا: تعظيم نصوص الكتاب والسنة.

المجترئ على نصوص الكتاب والسنة بالتأويل الفاسد، هو في حقيقته مُقدِّمٌ ما شاء هو على ما شاء مُنزل تلك النصوص والمتكلم بها! وهذا قبيح وإنْ قُدِّر أنَّ صاحب هذا المسلك يتعامل مع مساوٍ له في أمرٍ من أمور الدنيا! فكيف بالله تعالى؟

ولو سلك هذا المسلك التأويلي في حياته لما استقامت دنياه في تعامله مع كلام رؤسائه، وفي تعامل مرؤوسيه مع أوامره! ولفسدت معاملاته وتجاراته وبيعه وشراؤه! وكذلك لما تحصَّل عنده علمٌ من شيء، لأن التأويل قابلٌ لأنْ يُفسد على كل شيءٍ معناه! وبهذا يخرج المرء من جملة العقلاء أو يقع في التناقض.

---

(١) قوت القلوب لأبي طالب المكي (١ / ٣٠٧).

(٢) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٩ / ٤٤٨)، وروي نحوه عن بلال بن سعد كما في الزهد لابن المبارك (١ / ٢٤)، وعن سفيان الثوري كما في حلية الأولياء لأبي نعيم (٧ / ٢٥)، وجاء مرفوعًا بسند لا يعوَّل عليه؛ انظر ذخيرة الحفاظ لابن القيسراني (٥ / ٢٦٤٢)، والفوائد المجموعة للشوكاني (ص: ٢٥٠).

(٣) انظر قوت القلوب لأبي طالب المكي (١ / ٣٠٧).

ومع ذلك فإن في واقعنا الكثير من المتعالمين يسلكون هذا المسلك في النصوص الشرعية، ثم يكابر أحدهم بأنه قد جاء بما لم تستطعه الأوائل، وربما أزرى بغيره من أهل الطاعة ودعاة الاستقامة ووصفهم بالرجعية والتخلُّف، والتعنُّت والتشديد!

ولو عظَّموا الله ما اجترأوا على كلامه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم بمحاولة صرف ذلك عما يفهم منه بحسب الهوى، ولَعظَّموا من هو أهلٌ للتعظيم! ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٥٦﴾ [غافر]، وقد كان السلف يجِلُّون الكلام في كتاب الله تعالى.

ولا شك أن حمل القرآن على غير محامله، ولَـيَّ أعناق النصوص قولٌ على الله بغير علم، تواترت الأخبار والآيات مبينةً حرمته؛ قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «أيُّ أرضٍ تُقِلُّني وأيُّ سماءٍ تُظِلُّني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم»[1]، وقد ساق ابن جرير بسنده عن عبيد الله بن عمر العُمري أنه قال: «لقد أدركت فقهاء المدينة وإنهم ليعظمون القول في التفسير»، ثم ذكر جبالًا من أهل العلم فقال: «منهم سالم بن عبد الله، والقاسم بن محمد، وسعيد بن المسيب، ونافع»[2]، وروى أبو عبيد عن إبراهيم النخعي أنه قال: «كان أصحابنا يتقون التفسير ويهابونه»[3].

والمجترؤون اليوم على الكتاب والسنة بالتأويل الفاسد الذي لا اعتبار له درجات، وذكر شيخ الإسلام أبو إسماعيل الهروي أن من تعظيم الله عز وجل ألا يحمل الأمر والنهي على علةٍ تُوهِن الانقياد[4]. قال ابن القيم رحمه الله: «يريد: أن لا يتأول في الأمر والنهي علةً تعود عليهما بالإبطال، كما تأول بعضهم تحريم الخمر بأنه مُعلَّلٌ بإيقاع العداوة والبغضاء والتعرض للفساد، فإذا أُمِن مِنْ هذا المحذور منه جاز شربه، كما قيل:

(١) رواه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص: ٣٧٥)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣٠١٠٧).

(٢) تفسير الطبري (١ / ٨٥).

(٣) فضائل القرآن لأبي عبيد القاسم بن سلام (ص: ٣٧٨).

(٤) انظر منازل السائرين لأبي إسماعيل الهروي (ص: ٨١).

أدرهـا فما التحريم فيها لذاتها ولكن لأسبابٍ تضمنها السُّكْرُ
إذا لم يكن سُكر يُضِلُّ عن الهدى فسيَّان ماءٌ في الزجاجة أو خمرُ

وقد بلغ هذا بأقوامٍ إلى الانسلاخ من الدين جملةً»[١].

ومن الجرأة على الكتاب والسنة: معارضة الشريعة بالهوى، وإن كان أصحابها كثيرًا ما يدَّعون الهوى عقلًا، وقد يُدْعى صاحبه -ولا سيما في عصرنا- مفكرًا! وكأن التفكير خصيصةٌ له! ولو أنصف لَعَلِم أن ردَّه خبرًا تَلَقَّته الأمة بالقبول، على ما عرف فيها من أصحاب العقول، والعلماء الفحول، دالٌّ على أن فكره فاسدٌ في حكم عامة العقلاء!

وقد دخل قديمًا بعضهم على أحد المغترين فوجد بين يديه كتابًا قد صنفه، ولك أن تقول: كاغدًا سوَّده! فقال له: ما هذا؟ قال: كتاب عملته مدخلًا إلى التوراة! فقال له: إن الناس ينكرون هذا، فلو قطعت الوقت بغيره، قال: الناس جهال! قال له: وأنت ضدهم؟ قال: نعم! قال: فينبغي أن يكون ضدهم جاهلًا عندهم؟ قال: كذاك هو! قال له: فقد بقيت أنت جاهلًا بإجماع الناس، والناس جُهال بقولك وحدَك[٢].

لكنهم يغترون بتصفيق أصحاب الأهواء الذين هم على شاكلتهم؛ أُسراء لمقرراتٍ إغريقية أو يونانية أو أممية معاصرة، اعتنقوها وآمنوا بها أشد من إيمانهم بالكتاب والسنة، فردُّوا ما أمكنهم ردُّه، وتأولوا ما كان ردُّه تكذيبًا صريحًا بالكتاب والسنة! ومن فارق الإيمان لم يعبأ برد ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم دفعًا بالصدر من غير مواربة أو التواء، و«كيف يكون مؤمنًا به صلى الله عليه وسلم مَن يردُّ عليه السُّنةَ الثابتة المعروفة برأيه أو برأي أحدٍ من الناس بعده تعمدًا لذلك أو شكًّا فيها أو إنكارًا لها حين لم توافق هواه»[٣].

ولو عظَّم العبد ربه وكتابه لما رد سنة نبيه صلى الله عليه وسلم صراحةً أو تأويلًا، فقد أرسل الله عز وجل نبيه مبينًا لا مُلغزًا، وهاديًا لا مُلبسًا، وقد حرص صلى الله عليه

(١) مدارج السالكين (٢ / ٤٩٧).

(٢) انظر البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي (٩ / ٤١)، وربيع الأبرار للزمخشري (١ / ٣٨٧)، وشرح نهج البلاغة لابن أبي حديد (١٨ / ٥٠).

(٣) انظر تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي (٢ / ٦٥٩).

وسلم على هدايتنا، وبذل صلى الله عليه وسلم وسعه في البيان لنا، وأشهد الأمة -ونحن نشهد- بأنه بلغ البلاغ المبين، وترك الأمة على مثل البيضاء ليلها كنهارها، صلوات الله وسلامه عليه.

وقد تظاهرت آيات القرآن آمرةً بطاعة الله وطاعة الرسول واتباعه، طاعةً مطلقة، وعني بها بعض أهل العلم الذين ابتلوا بأهل الأهواء، فكانوا يُملُونها تذكيرًا وتثبيتًا، كما فعل الإمام أحمد رحمه الله ورضي عنه[1]. قال الله عز وجل: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة]، ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران]، ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [آل عمران]، ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٤﴾﴾ [النساء]، ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٤٦﴾﴾ [النساء]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء]، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء]، وغير هذه الآيات كثير.

فينبغي للمؤمن أن يُعظِّم نصوص الوحيين في نفسه ويُجِلَّهما، وينبغي للعالِم أن يرفع من شأنهما في نفوس طلابه، وكذلك الداعية والمربي، ولنا فيمن سلف من علماء هذه الأمة مع تلامذتهم أسوة، فتأمل كيف كان تعظيمهم للكتاب والسنة، وكيف كانوا يتعاملون معهما.

رأى عبد الله بن الـمُغَفَّل رجلًا من أصحابه يَخْذِف [يعني: يرمي بالحصاة ونحوها]، فقال له: لا تَخْذِفْ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكره -أو قال: ينهى- عن الخَذْف، فإنه لا يُصطاد به الصيد ولا يُنْكأ به العدوُّ، ولكنه يكسر السِّن ويفقأ العين،

(١) كما في مسائله من رواية ابنه عبد الله (ص: ٤٥٠).

ثم رآه بعد ذلك يَخْذِف، فقال له: «أُخْبِرُك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكره -أو ينهى عن- الخَذْف، ثم أراك تَخْذِف! لا أُكَلِّمُك كلمةً كذا وكذا»[1].

وقال الربيع بن سليمان: سمعت الشافعي وقد سأله رجلٌ عن مسألةٍ فقال: روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كذا وكذا، فقال له السائل: يا أبا عبد الله؛ أتقول بهذا؟ فارتَعَد الشافعي واصفَرَّ لونه وقال: ويحك! أيُّ أرضٍ تُقِلُّني وأيُّ سماءٍ تُظِلُّني إذا رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا فلم أقل به؟! نعم؛ على الرأس والعينين، على الرأس والعينين[2]. يا لها من هَبَّةٍ وغضبة شافعية! تحمل في نفس التلميذ تقديرًا للوحي.

وفي سير الأئمة ما لو بُسِط لامتدت السطور والصفحات من إجلالٍ لنصوص الوحيين، مما يُحدِث الأثر العميق في نفوس التلاميذ.

ومن ذلك ما ينبغي أن يكون عليه موقف الداعية والمربي من تلميذه الذي يشاغب على هذه النصوص، أو يردها بعقله وهواه، فيقف الشيخ موقف الغاضب لله ولرسوله، العارف بنفس تلميذه، فإن كان ما يفعله عن جهل، بيَّن له الصواب بالحسنى، وإن كان هواه قائدَه أبدى له من التمعُّر والغضب ما ينبغي أن يكون مُشَرِّدًا لمن خلفه ممن قد يتلقَّى تلك الترهات بالقبول، فإن التلاميذ قد يتشرَّبون الشبهة ثم لا يفقهون جوابها والرد عليها، فالمعلم والمربي عارفٌ بتلاميذه وبواطنهم، يعامل كُلًّا منهم بما يرى أنه الأصلح له ولمن يسمع.

ثالثًا: الذب عن الدين والإنكار على المستهزئين.

أعظم ما ينافي التعظيم الاستهانة بالله عز وجل نحو سَبِّه جل جلاله، فالذي يسب الله عز وجل هو أغلظ كفرًا من المشرك، ولهذا قد يُقَرُّ بعض المشركين على دينه بصُلحٍ أو عقدٍ، ولا يُقَرُّ على السب، بل يُجعل سبه ناقضًا لصلحه أو عهده أو ذمته؛ قال تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ

(١) رواه البخاري في صحيحه (٥٤٧٩) ومسلم في صحيحه (١٩٥٤).

(٢) رواه البيهقي في مناقب الشافعي (١ / ٤٧٥).

﴿لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ١٢﴾ [التوبة: ١٢]، «وقد قال الإمام أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم الحنظلي المعروف بابن راهويه، وهو أحد الأئمة يُعْدَل بالشافعي وأحمد: قد أجمع المسلمون أن من سب الله أو سب رسوله عليه الصلاة والسلام أو دفع شيئًا مما أنزل الله أو قتل نبيًا من أنبياء الله أنه كافر بذلك وإن كان مقرًا بما أنزل الله»[1]؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ٥٧ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ٥٨﴾ [الأحزاب].

ومما ينافي التعظيم أيضًا الاستهانةُ بما عظَّمه سبحانه وتعالى، كالاستهانة بكتابه أو سنة نبيه صلى الله عليه وسلم، أو بأحدٍ من أنبيائه عليهم الصلاة والسلام، ويتبع ذلك الاستهانة بمن تواتر فضلهم، وثبتت نصوص الكتاب والسنة القطعية به، من نوع تكفير جملة الصحابة أو الإزراء بالشريعة ونحو ذلك؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ٦٦﴾ [التوبة][2].

ومِن شِرار الذين تعظم عندهم الغفلة عن عظمة الرب عز وجل اليوم أولئك الذين يروِّجون الرسائل الفكاهية والأباطيل المضحكة ويسمونها نِكات! مشاهدةً أو مسموعة أو مكتوبة؛ يُهزأ فيها بالله أو بنبيه صلى الله عليه وسلم أو بشرعه هُزُوًا مستترًا بالضحكة ونشر البسمة! فيأتي غليظ القلب الغافل من المسلمين فيضحك ملء شدقيه ويرسل ما بلغه إلى غيره ليضحك بما لو تدبره لوجده استهزاءً بالله أو آياته أو رسوله أو شرعه!

وهذا يحصل في بعض المجالس والمجامع، وقد ازداد شره مع وسائل التواصل المعاصرة التي سهَّلت تناقل مثل هذا، وكم مجلسٍ اجتمع فيه فضلاء وآخرون دونهم، ينقل أحد المهاذير فيه أضحوكة لا تخلو من هزؤ بشعيرة، والناس ما بين مبتسم وضاحك! وقليلًا ما ترى من امتقع وجهه وقال: اتقوا الله! ألا ترجون لله وقارًا؟!

(١) الصارم المسلول لابن تيمية (٢ / ١٤ - ١٥). وانظر الشفا للقاضي عياض (٢ / ٢٧٠).

(٢) وانظر تفسير الرازي (١٦ / ٩٨ - ٩٩)، وتفسير اللباب لابن عادل (١٠ / ١٣٨)، وأيضًا تفسير غرائب القرآن لنظام الدين النيسابوري (٣ / ٤٩٧).

وغفلةُ كثيرٍ من الناس في هذا الشأن إنما هي غفلةٌ عن حق الله ومقام ربهم، وإلا فلو ذُكر سلفٌ من أسلافهم أو قبائلهم أو بلداتهم أو معظميهم بسوءٍ في ذلك المقام لجحظت عيون واحمرَّت أنوف، ولرأيت تأنيبًا وتأديبًا!

وقد أمرنا ربنا عز وجل فقال: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء]، قال ابن تيمية: «فجعل القاعد المستمع من غير إنكارٍ بمنزلة الفاعل، ولهذا يقال: المستمع شريك الـمُغتاب، وفي الأثر: من شَهِدَ المعصية وكرهها كان كمن غاب عنها، ومن غاب عنها ورضيها كان كمن شهدها. فإذا شهدها لحاجةٍ أو لإكراهٍ أنكرها بقلبه»[1].

وعلى من رأى منكرًا من القول أن ينكره لا أن ينشرح صدره به، وإن لم ينكر فهو مستحق للعقوبة، «وقد رُفِع إلى عمر بن عبد العزيز أقوام يشربون الخمر فأمر بجلدهم الحد، فقيل: إن فيهم صائمًا؟ فقال: ابدؤوا بالصائم فاجلدوه! ألم يسمع إلى قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾»[2].

وقال عز وجل: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام].

والأمر عظيم؛ قال عز وجل: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [التوبة].

«وقد حكى الله تعالى مقالات المفترين عليه وعلى رسله في كتابه على وجه الإنكار لقولهم، والتحذير من كفرهم، والوعيد عليه، والرد عليهم... فأما ذكرها على غير هذا

(١) مجموع الفتاوى (٣٠ / ٢١٣).

(٢) مجموع الفتاوى (٣٢ / ٢٥٤)، وقوله: اجلدوه لا يريد فيما يظهر الحد، بل نكالاً لجلوسه معهم، والأثر أصله عند ابن أبي شيبة في المصنف (٢٣٧٦٩).

من حكاية سبه، والإزراء بمنصبه، على وجه الحكايات والأسمار والطُّرَف، وأحاديث الناس ومقالاتهم في الغث والسمين، ومضاحك الـمُجَّان، ونوادر السخفاء، والخوض في قيل وقال وما لا يعني، فكل هذا ممنوع، وبعضه أشد في المنع والعقوبة من بعض، فما كان من قائله الحاكي له على غير قصدٍ أو معرفةٍ بمقدار ما حكاه، أو لم تكن عادته، أو لم يكن الكلام من البشاعة حيث هو، ولم يظهر على حاكيه استحسانه واستصوابه، زُجِر عن ذلك ونُهي عن العودة إليه، وإن قُوِّم ببعض الأدب فهو مستوجب له، وإن كان لفظه من البشاعة حيث هو كان الأدب أشد»[1].

رابعًا: التسليم والرضا بالقضاء والقدر

الصبر والتسليم والرضا بالقضاء تعظيمٌ لمن قدَّر وقضى عز وجل، وحكم الله حكمان: حكمٌ شرعي وحكمٌ قدري، فتعظيم الشرعي بالامتثال، وتعظيم القدري بالتسليم.

والواجب هو الصبر على القدر المكروه للعبد، وإن ارتفع إلى درجة الرضى فذلك ندب، وأنْ يعلم أنَّ لله فيما يُجري حِكَمًا، وأن ما أصاب المرء إما ابتلاء يرتفع به، أو هو جزاء بعض أعماله، وعلى العبد أن يعظِّم مقام ربه، وأن يحسن الظن به، لا أن يحسن الظن بنفسه ويسوؤه بربه! وأن يعلم تقصيره وأن ما أصابه إنما هو من نفسه: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء:٧٩]، ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عمران]، ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى]، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [النحل: ٦١].

ولله درُّ الإمام أبي جعفر الطحاوي حيث يقول: «وأصلُ القدر سِرُّ الله تعالى في خلقه، لم يَطَّلِع على ذلك ملكٌ مُقرَّب ولا نبيٌّ مُرسَل، والتعمق والنظر في ذلك ذريعةُ الخذلان وسُلَّمُ الحرمان ودرجةُ الطغيان، فالحذرَ كلَّ الحذر من ذلك نظرًا وفِكْرًا ووسوسة، فإن الله

(١) الشفا للقاضي عياض (٢ / ٢٤٥ - ٢٤٦)، وقد يكون الناقل كالمنشئ إذا ظهر رضاه وعلمه، وقد قال اللكنوي في شفاء العي له (ص: ٨٢): «ليس أن الناقل مطلقًا لا يرد عليه شيء.. بل هو من حيث كونه ناقلا، فإذا التزم الصحة يجعل مُدعيًا ومستدلًا، ويؤاخذ بما يؤاخذان به».

تعالى طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه، كما قال تعالى في كتابه: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء]»[1].

وتسخُّط القدر درجات، فمنه المعارضة الخفية ومنه المعارضة الجلية، أما الخفية فكثيرًا ما تقع في الحوادث المعتادة المكروهة بالطبع كالتسخُّط على الزمان لما يمرُّ من نقصِ رزقٍ أو حرٍّ أو بردٍ أو غبرةٍ أو غيرها، وعامةُ من يتأفف ليس له غرضٌ إلا إظهار الضَّجر أو قطع الصمت على الجلساء بما الصمت خيرٌ منه!

ومن ذلك ذمُّ القدر على ما جرى له أو لغيره، كقولهم لمن أصابه عارضٌ قدري: فلان طيبٌ ما يستأهل! وأجلى منه من تسمعهم يقولون عند حلول مُصابٍ: لماذا أنا يا رب؟! ومِن أشَدِّ ذلك لعن اليوم والوقت والساعة التي نزل فيها القدر.

ومنه سبُّ الدهر أو الزمان ووصفه بالغدر والقُبح ونحو ذلك، وهو كثيرٌ في كلام العامة وأشعارهم، وهو سبٌّ للقدر في صورة سبِّ الزمان، بل هو أذيَّةٌ لله تعالى، كما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «قال الله تعالى: يُؤذيني ابن آدم؛ يسبُّ الدهر، وأنا الدهر؛ بيدي الأمر، أُقلِّب الليل والنهار» متفق عليه[2].

خامسًا: الإقبال على القرآن والاعتبار والتأثر به.

لو عظَّم العبد ربَّه لعظَّم كلامه ولتدبَّر ما فيه واعتبر وتأثر، فإن كلامه منه، غير مخلوق، وهو عظيمٌ وكلامه عظيم، قال سبحانه في مُحكم آياته: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَٰمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَٰلِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ الْأَسْمَآءُ الْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر].

---

(١) العقيدة الطحاوية لأبي جعفر الطحاوي (ص: ٤٩ - ٥٠).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٧٤٩١) واللفظ له، ومسلم في صحيحه (٢٢٤٦).

قال ابن جرير رحمه الله: «يقول جلَّ ثناؤه: لو أنزلنا هذا القرآن على جبل، وهو حجر، لرأيته يا محمد خاشعًا؛ يقول: متذللًا متصدعًا من خشية الله على قساوته، حذرًا من أن لا يؤدي حقَّ الله المفترض عليه في تعظيم القرآن، وقد أُنزل على ابن آدم وهو بحقّه مستخِفٌّ، وعنه عمَّا فيه من العِبَر والذِّكر مُعْرِض، ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ [لقمان: ٧]»[1].

وقال ابن الجوزي: «أخبر الله بهذا عن تعظيم شأن القرآن وأنه لو جُعل في جبل على قساوته وصلابته تمييزًا كما جُعل في بني آدم، ثم أُنزل عليه القرآن لتشقق من خشية الله وخوفًا أن لا يؤدي حق الله في تعظيم القرآن، والخاشع: المتطأطئ الخاضع، والمتصدع: المتشقق. وهذا توبيخٌ لمن لا يحترم القرآن، ولا يؤثّر في قلبه مع الفهم والعقل، ويدلك على هذا المثل قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت] ثم أخبر بعظمته وربوبيته»[2].

وقد ذمَّ الله عز وجل من لا يعتبر بالقرآن أو يدَّكر، ووصفهم بالضلال -وأيُّ ضلال!- فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر].

وامتدح آخرين فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [المائدة]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء].

---

(١) تفسير الطبري (٢٣ / ٣٠٠ - ٣٠١).

(٢) زاد المسير لابن الجوزي (٨ / ٢٢٤).

وكل الناس مع القرآن مزداد، إما خيرًا وإما ضده! ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة].

ولم يزل أفاضل هذه الأمة وأكملهم إيمانًا يتأثرون بكلام العظيم سبحانه ويعتبرون، ويزداد إيمانهم إذا تُليَت عليهم آياته، لا يخرون عليها صمًّا وعميانًا، أُسوتهم نبيهم صلى الله عليه وسلم؛ جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: اقرأ علي! قلت: يا رسول الله آقرأ عليك وعليك أُنزل؟ قال: نعم. فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء]، قال: حسبك الآن. فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان»[١].

وفي الصحيحين: لما اشتدَّ برسول الله صلى الله عليه وسلم وَجَعُه قيل له في الصلاة، فقال: «مُرُوا أبا بكر فليصلِّ بالناس»، قالت عائشة: «إن أبا بكر رجلٌ رقيق؛ إذا قرأ غلبه البكاء»، وفي رواية مسلم: «لا يملك دمعه»[٢].

وفي الصحيح: قال عبد الله بن شداد: سمعت نَشيجَ عمر وأنا في آخر الصفوف يقرأ: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦][٣]، وهذان خيّرا هذه الأمة!

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ [البقرة]، قال: فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم[٤]، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٤٧٦٣) ومسلم في صحيحه (٨٠٠).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٦٨٢) ومسلم في صحيحه (٤١٨).

(٣) علّقه البخاري في صحيحه (١ / ١٤٤) بصيغة الجزم، ورواه سعيد بن منصور في التفسير من سننه (١١٣٨)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣٥٥٢٧).

(٤) جاء في رواية ابن عباس أنه قال: «دخل قلوبهم من الآية شيءٌ لم يدخل شيءٌ مثله في عظمته». وإنما شقت عليهم لفقههم رضي الله عنهم وتعظيمهم قول الله وتدبرهم له.

بركوا على الرُّكَب وقالوا: أيْ رسولَ الله! كُلِّفنا من الأعمال ما نُطيق؛ الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أُنزلت عليك هذه الآية ولا نُطيقها! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟! بل قولوا: سمعنا وأطعنا؛ غفرانك ربنا وإليك المصير»، فلما اقْتَرأها القومُ ذلَّت بها ألسنتهم -يعني لما أقرأهم الجملة قرؤوها- فأنزل الله في إثرها: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾، فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى وأنزل الله عز وجل: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، قال: نعم، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾، قال: نعم، ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾، قال: نعم، ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾، قال: نعم»[1].

وقد قرأ ابن عمر: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ الآية، فدمعت عيناه[2]، وما قرأها إلاَّ بكى[3]، وابن عمر يعلم أنها نُسخت[4]، لكن عظمتها ما زالت باقية.

وجاء عن إبراهيم التيمي أنه قال: «لقد أدركت ستين من أصحاب عبد الله في مسجدنا هذا، أصغرهم الحارث بن سويد، وسمعته يقرأ سورة الزلزلة حتى بلغ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾، فجلس يبكي ثم قال: إن هذا الإحصاء شديد»[5].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (١٢٥، ١٢٦) من حديث أبي هريرة وابن عباس.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٥٥٢٨)، وصحح طريقه ابن كثير في تفسير الآية (١ / ٧٣٠).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٤٦٤١)، وأحمد في الزهد (١٠٧٠)، وسنده جيد.

(٤) كما رواه البخاري في صحيحه (٤٥٤٥، ٤٥٤٦).

(٥) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٥٥٤٢)، وسنده جيد.

فتأمل كيف امتد أثر تعظيم الله تعالى من نفس المعلم المربي إلى نفوس أصحابه وتلاميذه، وذلك لما كان ممتثلًا له في نفسه أولًا رضي الله عنه وأرضاه.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ (٥٨)﴾ [مريم]، ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٢)﴾ [الزمر].

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢)﴾ [النساء]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤)﴾ [محمد]، ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٩)﴾ [سورة ص].

سادسًا: استصغار الطاعة.

العبد إذا عظَّم ربه استقلَّ طاعته، وإن عظَّم نفسه استكثرها، والمعصيةُ إذا استُعظِمت صغُرَت عند الله وخفَّ ضررها على العبد، والطاعةُ إذا استُصغرت كبُرَت عند الله وعَظُم نفعها، والعكس بالعكس.

يقول ابن القيم رحمه الله: «ما أقرب هذا الـمُدِلَّ من مَقْتِ الله! فذنبٌ تَذِلُّ به لديه أحبُّ إليه مِن طاعةٍ تُدِلُّ بها عليه، وإنك أن تبيت نائمًا وتصبح نادمًا خيرٌ من أن تبيت قائمًا وتصبح مُعْجَبًا، فإن الـمُعْجَب لا يصعد له عمل، وإنك إن تضحك وأنت معترفٌ خيرٌ من أن تبكي وأنت مُدِلٌّ، وأنين المذنبين أحبُّ إلى الله من زَجَل الـمُسبِّحين الـمُدِلِّين، ولعل الله أسقاه بهذا الذنب دواءً استخرج به داءً قاتلًا هو فيك ولا تشعر، فللهِ في أهل طاعته ومعصيته أسرار لا يعلمها إلَّا هو، ولا يطالعها إلَّا أهل البصائر، فيعرفون منها بقَدْرِ ما تناله معارف البشر، ووراء ذلك ما لا يطلع عليه الكرام الكاتبون»[1].

«والخليل عليه السلام يقول: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢)﴾ [الشعراء]، وما أدلَّ بتصبُّرِه على النار، وتسليمِه الولدَ إلى الذبح، ورسولُ الله صلى الله

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١ / ١٧٧).

عليه وسلم يقول: "ما منكم من ينجيه عمله"، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: "ولا أنا إلَّا أنْ يتغمدني الله برحمته"[1]...»[2].

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحجرات].

سابعًا: تعظيم الحلف بالله.

كان صدر هذه الأمة الـمُعلَّى وأبرارها يستعظمون الحلف وإن كان الحالف صادقًا؛ سمع ابن محيريز رجلًا يُساوم رجلًا وهو يقول: لا واللهِ! وبلى واللهِ! فقال: «يا هذا؛ لا يكونن الله أهونَ بضاعتك عليك»[3].

ومَن أجلَّ عظيمًا نزَّهه عن التبلُّغ به لكل غرض، فلا يليق بالمؤمن أن يكثر الحلف بالله عز وجل في كل أمر حقير، قال الرازي في قوله تعالى ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٤]: «الحكمة في الأمر بتقليل الأيمان؛ أن من حلف في كل قليلٍ وكثير بالله، انطلق لسانه بذلك، ولا يبقى لليمين في قلبه وقع، فلا يؤمَن إقدامه على اليمين الكاذبة، فيختل ما هو الغرض الأصلي في اليمين، وأيضًا كلما كان الإنسان أكثر تعظيمًا لله تعالى كان أكمل في العبودية، ومِن كمال التعظيم أن يكون ذكر الله تعالى أجلَّ وأعلى عنده من أن يستشهد به في غرضٍ من الأغراض الدنيوية»[4]، و«من تَرَك الحلف لاعتقاده أن الله أعظم وأجل من أن يُستشهَد باسمه الـمُعظَّم في طلب الدنيا وخسائس مطالب الحلف؛ لا شك أن هذا من أعظم أبواب البر»[5].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٦٤٦٣) ومسلم في صحيحه (٢٨١٦).

(٢) صيد الخاطر لابن الجوزي (ص: ٣٨٨ - ٣٨٩).

(٣) رواه يعقوب بن سفيان في المعرفة والتاريخ (٢ / ٣٦٤)، ومن طريقه البيهقي في شعب الإيمان (٤٩٢١) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٣ / ١٩).

(٤) تفسير الرازي (٦ / ٦٥)، وانظر تفسير غرائب القرآن لنظام الدين النيسابوري (١ / ٦١٧).

(٥) تفسير اللباب لابن عادل (٤ / ٨٨) بتصرف يسير، وانظر أصله فيما سبق من تفسير الرازي.

وقد كَرِه قومٌ القسمَ بالله مطلقًا، والتوسطُ أنه يُحلَف بالله فيما يقتضيه الأمر والحال، ومن ذلك كل حق يُطلَب استيثاقه، أو حض النفس أو الناس عليه، ونحوه القَسَم حضًّا للنفس على ترك قبيح، أو على مباح اقتضى فعلَه أو تركَه مقتضٍ، وكل ذلك شريطة أن يفي ويلتزم تعظيمًا لمن أقسم به، فالذي يذكر اسم الله فيحلف على فعل أمرٍ، فإنه يجب عليه أن يفعله أو تلزمه كفارةُ يمين، لذكر اسم الله في الحلف به، حتى إن كان الأمر مباحًا ورأى أن غيره خير منه، فعليه كفارة يمين، فاسم الله الذي ذكرَه عظيم! قال صلى الله عليه وسلم: «إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرًا منها فكَفِّر عن يمينك وَأْتِ الذي هو خير»[1]، وقال عليه الصلاة والسلام: «إني -واللهِ- إن شاء الله لا أحلف على يمينٍ فأرى غيرها خيرًا منها إلا كَفَّرت عن يميني وأتيت الذي هو خير»[2].

ومَن ترك القَسَم على الأمور ولو في مخاصمةٍ هو مُحِقٌّ فيها تعظيمًا لأمر الله، فذلك من تقوى قلبه، يُحمَد له ما قام به؛ قال القرطبي رحمه الله عند تفسير قوله عز وجل ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤)﴾ [البقرة]: «العرب تمتدح بقلة الأيمان حتى قال قائلهم:

قليلُ الألايا حافظٌ ليمينه ... وإن بدرت منه الأَلِيَّةُ بَرَّتِ

وعلى هذا ﴿أَن تَبَرُّوا۟﴾ معناه: أقِلُّوا الأيمانَ لما فيه من البر والتقوى، فإن الإكثار يكون معه الحنث وقِلَّة رعي حقِّ الله تعالى، وهذا تأويلٌ حسن»[3].

فمَن ذَكَرَ اسم الله عز وجل تبلُّغًا به إلى محقرات الأمور؛ تنفيقًا للسلع، وترويجًا للحديث، وطلبًا لمتاع الدنيا القليل؛ فإنه لم يعظِّمه حق تعظيمه، وأقبح ما يكون ذلك إذا كانت اليمين فاجرة، صح عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم»، وذكر منهم: «ورجل أقام سلعته بعد العصر فقال: واللهِ الذي لا إله غيره لقد أعطيت

(١) رواه البخاري في صحيحه (٧١٤٦) ومسلم في صحيحه (١٦٥٢).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٧٦١٨) ومسلم في صحيحه (١٦٤٩).

(٣) تفسير القرطبي (٣ / ٩٧).

بها كذا وكذا، فصدَّقه رجلٌ» ثم قرأ هذه الآية: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ [آل عمران][1]، وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم»، قال: فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرار، قال أبو ذر: خابوا وخسروا، من هم يا رسول الله؟ قال: «الـمُسبِل والمنان والـمُنفق سلعتَه بالحلف الكاذب»[2].

وقد جاء التشديد في الأيمان الفاجرة، فعن عبدالله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس»[3]، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَن حلف على يمين صَبْرٍ يقتطع بها مال امرئٍ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان»[4]، وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم: رجل حلف على سلعة: لقد أعطى بها أكثر مما أعطى وهو كاذب، ورجل حلف على يمينٍ كاذبة بعد العصر ليقتطع بها مال رجل مسلم، ورجل منع فضل ماءٍ، فيقول الله: اليوم أمنعك فضلي كما منعت فضلَ ما لم تعمل يداك»[5].

وما سبق يعزز تعظيم اسم الله عز وجل فلا يُوَثَّق به إلا الحق عند اقتضاء الحاجة.

ويلحق بما سبق تعظيمُ ما حُلِف عليه باسم الله، فبعض الناس يستوي عنده ما حُقِّق له من الكلام بالله العظيم فاستُدعِيَ ذكرُ الله عز وجل كفيلًا عليه مع ما عري عن ذلك!

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٢٣٥٨) ومسلم في صحيحه (١٠٨).

(٢) رواه مسلم في صحيحه (١٠٦).

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٦٦٧٥).

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٦٦٧٦) ومسلم في صحيحه (١٣٨).

(٥) رواه البخاري في صحيحه (٢٣٦٩).

ولو سئل بأبيه أو بالنعمة أو بما يُعظِّم مما نهى الله عنه لكان ذلك أدعى لجوابه! ولو عظَّم الله عز وجل حقَّ تعظيمه لجعل لذكره تعالى اعتبارًا، ومن تعظيم اسم الله عز وجل أن يُجاب السائل به في الحق.

وقبيح أن يُغفِل المسؤول بالله اللهَ الجليل الذي توسل السائل به للإجابة، فعلى من يعظِّم الله عز وجل أن ينظر إلى عظمة ما توسل به السائل وحقق به صدقه -لا أن يقصر نظره على السائل- ويرجو في ذلك الثواب من الله، ويعلم أنه يعامله عز وجل. وقد جاء عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «رأى عيسى ابن مريم رجلًا يسرق، فقال له: أسرقت؟ قال: كلا واللهِ الذي لا إله إلا هو، فقال عيسى: آمنت بالله، وكذبت عيني»[1].

وقد جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَن استعاذ بالله، فأعيذوه، ومن سأل بالله، فأعطوه»[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ألا أُخبركم بشرِّ الناس: رجلٌ يُسأل بالله ولا يعطي به»[3].

وهذه الأحاديث فيها تأكيد إجابة السائل بالله تعالى، وظاهرها الوجوب، لكن ذهب جمهور أهل العلم إلى الندب، لكن لا ينبغي لمن عظَّم الله أن يرد السائل بالله إذا سأله حقًّا يقدر عليه؛ سئل الشيخ ابن باز رحمه الله: بعض الناس يحرجوننا بكلمة أسألك بالله أن تعطيني كذا، أو أسألك بالله أن تبيعني كذا، ...؟ فأجاب: إذا كان السائل لا حق له بهذا الشيء فلا حرج فيه إن شاء الله، فإذا قال: أسألك بالله أن تعطيني دارك أو تعطيني سيارتك أو تعطيني كذا وكذا من المال، فهذا لا حق له، أما إذا كان يسأل حقًّا له: أسألك بالله أن توفيني دَيني الذي عليك، أسألك بالله أن تعطيني من الزكاة، وهو من أهلها؛ تعطيه ما تيسر، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال:«من سأل بالله فأعطوه»،

(١) رواه البخاري في صحيحه (٣٤٤٤).

(٢) رواه أبو داود في سننه (١٦٧٢) والنسائي في سننه (٢٥٦٧) وابن حبان في صحيحه (٣٣٧٥)، والحاكم في المستدرك (٢٣٦٩)، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٥٤).

(٣) رواه الترمذي في سننه (١٦٥٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٥٥).

أسألك بالله أن تنصرني على هذا الظالم، وأنت تستطيع أن تنصره، أسألك بالله أن تعينني على كذا وكذا من إزالة المنكر: فلا بأس بهذا، هذا أمرٌ مطلوب؛ عليك أن تعينه وأن تستجيب له، لأنه سأل حقًّا، أما أن يسأل شيئًا لا حق له فيه أو يسأل معصية، فهذا لا حق له في ذلك، وليس على الناس حرج إذا رفضوا طلبه، لأنه طلب ما ليس له[1].

ومما يتصل بهذه المسألة أيضًا السؤال بوجه الله عز وجل، فمن تعظيم الله تعالى تركه إلا إن كان سؤالًا للجنة، أو استعاذةً من العذاب، فعن جابر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة»[2]، قال الإمام البيهقي إثر إخراجه هذا الحديث: «فينبغي للسائل أن يعظِّم أسماء الله تعالى، ولا يسأل بشيء منها من عرض الدنيا شيئا، وينبغي للمسئول إذا سُئل بالله تعالى أن لا يمنع ما استطاع»[3].

ثامنًا: تعظيم ما ذُكِر اسم الله فيه من الأوراق ونحوها.

قال محمد بن الصلت: «سُئل بِشْر بن الحارث: ما كان بدء أمرك، لأن اسمك بين الناس كأنه اسم نبي؟ قال: هذا من فضل الله، وما أقول لكم، كنت رجلًا عيَّارًا صاحب عصبة، فجُزْتُ يومًا فإذا أنا بقرطاسٍ في الطريق، فرفعته فإذا فيه "بسم الله الرحمن الرحيم"، فمسحته وجعلته في جيبي، وكان عندي درهمان، ما كنت أملك غيرهما، فذهبت إلى العطارين فاشتريت بهما غاليةً -نوعًا من الطيب- وطيَّبت القرطاس به، فنمت تلك الليلة فرأيت في المنام كأن قائلًا يقول لي: يا بشر بن الحارث؛ رفعت اسمنا عن الطريق وطيَّبته، لأُطيبنَّ اسمك في الدنيا والآخرة، ثم كان ما كان»[4].

و«مع انتشار أدوات الطباعة ورخص ثمنها، أضحت الصحف والأوراق في كل مكان، تجدها في الشارع وفي الطريق، وربما أُلقيت في حاوية القمامة، وغالب الصحف

---

(١) انظر فتاوى نور على الدرب للشيخ ابن باز رحمه الله (١ / ١٨٤ - ١٨٥).

(٢) رواه أبو داود في سننه (١٦٧٣)، وفيه ضعف، لكن معناه جاءت به أحاديث أخرى كحديث ابن عباس رضي الله عنهما الذي سبق.

(٣) شعب الإيمان للبيهقي (٥ / ١٧٢).

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية (٨ / ٣٣٦).

والأوراق والكراتين -بل وحتى أكياس المحلات- يوجد عليها لفظ الجلالة! فكيف نعظِّم الرب عز وجل وننزهه ونحن نلقي بتلك الأوراق والمغلفات البلاستيكية في كل مكان؟! وقد استمرأ الأمرَ مع الأسف الكبارُ والصغار، والأصل قيام الأب والمعلم والمربي بمعالجة ذلك لأمرين:

الأول: رفع اسم الله تبارك وتعالى عن الامتهان والقاذورات.

والثاني: تربية الأبناء والتلاميذ على تعظيم شعائر الله، واحترام وإجلال اسم الله تعالى أن يُمتهن.

والأمر سهلٌ في معالجة ذلك، بإزالة الاسم سواء بالقصِّ أو الطمس بقلمٍ كثيف اللون يخفي المعالم.

ويلحق بهذا الأوراقُ الرسمية التي كُتبت عليها البسملة ونحو ذلك، فتوضع في "فرَّامات الورق" فلا يكون للفظ الجلالة رسمٌ في تلك الأوراق بعد تمزيقها»[١].

وسُئلت اللجنة الدائمة للإفتاء هذا السؤال: «يوجد على بعض علب الألبان كتابة آيةٍ من القرآن الكريم هي: ﴿لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴾ [النحل: ٦٦]، ومصير هذه العلب بعد الاستعمال الرمي والامتهان، فإن كان لا يجوز وضعها على العلب ولا رميها في الأقذار فأفيدوني، لأبلغ باعة الألبان ليحتاطوا في ذلك.

وقد أجابت اللجنة بما يلي: إن هؤلاء يأخذون كلماتٍ من القرآن والحديث ولا يقصدون بذلك حكايتها على أنها قرآن أو حديث، ولذلك لم يقولوا: "قال الله تعالى: ..."، ولا "قال النبي صلى الله عليه وسلم: ..."، وإنما أخذوها استحسانًا لها، ولمناسبتها ما قصدوا استعمالها فيه من جعلها في لافتة أو استعمالها في الدعاية إلى ما كُتبت عليه، وبذلك خرجت في كتابتهم عن أن تكون قرآنًا أو حديثًا، ومثل هذا يسمى اقتباسًا، وهو عند علماء البديع: أخذُ شيء من القرآن أو الحديث على غير طريق الحكاية ليجعل به الكلام نثرًا أو نظمًا، وعلى هذا لا يكون حكمه حكم القرآن من تحريم حمله أو مسِّه على غير

(١) مقالة في موقع صيد الفوائد بعنوان (أيها الناس؛ عظِّموا اسم ربكم) بتصرف يسير.

المتطهر، أو تحريم النطق به على من كان جُنبًا، ولكن لا يليق بالمسلم أن يقتبس شيئًا من القرآن أو الحديث للأغراض الدنيئة، أو يكتبه عنوانًا أو دعايةً لصناعة أو مهنة أو عملٍ خسيس، لما في نفس الاقتباس لذلك من الامتهان، وأما رمي الأوراق المكتوبة أو العلب أو الأواني المكتوب عليها في الأقذار ونحوها أو استعمالها فيما فيه امتهان لها فلا يجوز، وإن كان المكتوب قرآنًا كان ذلك أشد خطرًا، وإن قصد برمي ما فيه القرآن امتهانَه، أو كان مستهترًا بقذفه في القاذورات أو باستعماله فيها كان ذلك كفرا»[1].

وسُئلت اللجنة أيضًا هذا السؤال: «ما حكم من يضع متاعه أو حاجياته أو يلفها في كتبٍ أو ورقٍ يحتوي على سورٍ وآياتٍ من القرآن الكريم والسنة المطهرة، وهذه ظاهرةٌ شائعة عندنا، فما حكم هذا العمل، وهل أسير في الشارع راكعًا لجمع تلك الآيات والسور التي كَثُر رميها على الأرض، وماذا أفعل لإزالة هذا المنكر المنتشر؟

الجواب: أولًا: لا يجوز أن يضع المسلم متاعه أو حاجته في أوراق كُتب فيها سور وآيات من القرآن الكريم أو الأحاديث النبوية، ولا أن يُلقي ما كُتب فيه ذلك في الشوارع والحارات والأماكن القذرة، لما في ذلك من الامتهان وانتهاك حرمة القرآن والأحاديث النبوية وذكر الله، ووسائلُ صيانة المتاع كثيرة، وفيها غُنيةٌ عن استعمال ما كُتب فيه القرآن والأحاديث النبوية أو ذكر الله.

ثانيًا: يكفيك للخروج من الإثم والحرج أن تنصح الناس بعدم استعمال ما ذُكر فيما فيه امتهان، وأن تحذرهم من إلقاء ذلك في سلات القمامة وفي الشوارع والحارات ونحوها، ولست مكلفًا بما فيه حرج عليك من جعل نفسك وقفًا على جمع ما تناثر من ذلك في الشوارع ونحوها، وإنما ترفع من ذلك ما تيسر منه دون مشقة وحرج»[2].

(١) فتاوى اللجنة الدائمة - المجموعة الأولى (٤ / ٧٠ - ٧١).

(٢) فتاوى اللجنة الدائمة - المجموعة الأولى (٤ / ٧٣- ٧٥).

تاسعًا: ستر المعصية.

الـمُتبجِّح بالمعصية قد جمع إلى معصيته القبيحة معصيةً أخرى أقبح، وهي الجرأة على مقام مَن عصى، فإغفاله تعظيم مَن عصى معصيةٌ برأسها عظيمة[1]؛ قال صلى الله عليه وسلم: «كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملًا ثم يصبح وقد سَتَرَه الله عليه، فيقول: يا فلان؛ عَمِلتُ البارحةَ كذا وكذا! وقد بات يستُرُه ربه، ويُصبِح يكشف سِتْرَ الله عنه»[2].

ومراتب الفاحشة متفاوتة بحسب مفاسدها، فالـمُجاهِر بما يرتكبُه أكبر إثمًا من الـمُستخفي، والذي يخبر الناس ويحدِّثهم بما يرتكبه أكبر إثمًا من الكاتم له، فإن الـمُجاهِر الـمُعلِن بعيدٌ من عافية الله تعالى وعفوه[3].

والـمُجاهِر بالمعصية على قسمين[4]:

الأول: أن يكون غافلًا لا يهتم بشيء، فتجده يعمل السيئة ثم يتحدَّث بها عن غفلة.

والثاني: أن يتحدَّث بها تبجُّحًا بالمعاصي واستهتارًا بعظمة الخالق، كأنما نال غنيمةً، فهذا -والعياذ بالله- شرُّ الأقسام.

---

(١) انظر بريقة محمودية للخادمي (١ / ٢٨).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٦٠٦٩) ومسلم في صحيحه (٢٩٩٠).

(٣) انظر إغاثة اللهفان لابن القيم (٢ / ١٤٧).

(٤) انظر شرح رياض الصالحين لابن عثيمين (٣ / ١٧).

أسباب الازدياد من التعظيم:

للازدياد من التعظيم أسباب هي أسباب ازدياد الإيمان، لكن الإيمان معنى أعم، وبعض الأعمال أظهر تعلقًا بالتعظيم، ولعل من أهمها ما يأتي:

أولاً: العلم بالله.

قال ابن القيم عن منزلة التعظيم في المدارج: «هذه المنزلة تابعة للمعرفة، فعلى قدر المعرفة يكون تعظيم الرب تعالى في القلب، وأعرف الناس به أشدُّهم له تعظيمًا وإجلالًا، وقد ذم الله تعالى من لم يعظمه حقَّ عظمته، ولا عرفه حقَّ معرفته، ولا وصفه حقَّ صفته، قال تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح]»[١].

ومن عرف الله عز وجل بأسمائه وصفاته، وعرف كمال أفعاله، وأبصر آيات ذلك في كتابه وفي مخلوقاته؛ اقتضى له ذلك تعظيمه عز وجل، ولهذا أُثر عن بعض القدوات قوله: عجِبتُ لمن عرف الله فعصاه[٢]، وقال محمد بن يحيى الواسطي: «ما عرف الله حق معرفته من آثر طاعة الشيطان على طاعته»[٣].

والعلم بالله عز وجل لا يبلغ أحدٌ غايته، كما قال سبحانه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه]، «وقد كان الشبلي يقول: "ما عرف الله أحدٌ حقيقةً"،

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٤٩٥).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٥ / ٢٧٢) والبيهقي في الشعب (٩ / ٥٠٤) من قول عمر بن عبد العزيز بمعناه.

(٣) ربيع الأبرار للزمخشري (١ / ٢٠).

يعني: لو عرفوه حقيقةً ما اشتغلوا بسواه»[1]، لكنه كلما كَمُل العلم بالله كان صاحبه أشد تعظيمًا وأكمل خشية، ولهذا ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا»[2]، فقرن بين التقوى والعلم.

وكيف لا يعظِّم اللهَ مَن علم أنه هو الذي «يدبِّر أمرَ الممالك، ويأمر وينهى، ويخلق ويرزق، ويميت ويحيي، ويقضي وينفذ، ويُعِزُّ ويذل، ويُقلِّب الليلَ والنهار، ويُداول الأيامَ بين الناس، ويُقلِّب الدول، فيذهب بدولةٍ، ويأتي بأخرى.

والرسلُ من الملائكة عليهم الصلاة والسلام بين صاعدٍ إليه بالأمر، ونازلٍ من عنده به، وأوامرُه ومراسيمُه متعاقبةٌ على تعاقب الأوقات، نافذةٌ بحسب إرادته ومشيئته، فما شاء كان كما شاء في الوقت الذي يشاء على الوجه الذي يشاء، من غير زيادةٍ ولا نقصان، ولا تقدُّمٍ ولا تأخر، وأمره وسلطانه نافذٌ في السماوات وأقطارها، وفي الأرض وما عليها وما تحتها، وفي البحار والجو، وفي سائر أجزاء العالم وذرَّاتِه؛ يُقلِّبها ويُصرِّفها، ويُحدِث فيها ما يشاء.

وقد أحاط بكل شيء علمًا، وأحصى كل شيء عددًا، ووسع كل شيء رحمةً وحكمة، ووسع سمعه الأصوات، فلا تختلف عليه ولا تشتبه عليه، بل يسمع ضجيجها باختلاف لغاتها على تفنُّن حاجاتها، فلا يَشغَلُه سمعٌ عن سمع، ولا تُغلِطُه كثرةُ المسائل، ولا يتبرَّم بإلحاح الـمُلِحِّين ذوي الحاجات، وأحاط بصرُه بجميع المرئيات، فيرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصمَّاء في الليلة الظلماء، فالغيب عنده شهادة، والسرُّ عنده علانية، يعلم السرَّ وأخفى من السر، فالسرُّ ما انطوى عليه ضمير العبد وخَطَرَ بقلبه، ولم تتحرك به شفتاه، وأخفى منه: ما لم يخطر بقلبه بعد، فيعلم أنه سيخطر بقلبه كذا وكذا في وقت كذا وكذا.

(١) انظر درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٨ / ٥٢١).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٢٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وله الخلق والأمر، وله الملك وله الحمد، وله الدنيا والآخرة، وله النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، وله الملك كله، وله الحمد كله، وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، شملت قدرته كل شيء، ووسعت رحمته كل شيء، وسَعَت نعمته إلى كل حي.

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن]: يغفر ذنبًا، ويفرِّج همًّا، ويكشف كربًا، ويجبر كسيرًا، ويُغني فقيرًا، ويُعَلِّم جاهلًا، ويهدي ضالًّا، ويُرشِد حيران، ويُغيث لهفان، ويَفُكُّ عانيًا، ويُشبع جائعًا، ويكسو عاريًا، ويشفي مريضًا، ويعافي مبتلى، ويقبل تائبًا، ويجزي محسنًا، وينصر مظلومًا، ويقصم جبَّارًا، ويُقِيل عثرةً، ويستر عورةً، ويُؤَمِّن روعةً، ويرفع أقوامًا، ويضع آخرين.

لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسطَ ويرفعه، يُرفَع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل.

حجابُه النور، لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

يمينُه مَلأى لا تَغِيضُها نفقة، سحَّاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق الخلق، فإنه لم يَغِضْ ما في يمينه!

قلوب العباد ونواصيهم بيده، وأزِمَّة الأمور معقودةٌ بقضائه وقدره، الأرض جميعًا قبضتُه يوم القيامة، والسماوات مطوياتٌ بيمينه، يقبض سماواته كلها بيده، والأرضَ باليد الأخرى، ثم يهُزُّهنَّ ثم يقول: أنا الملك، أنا الملك، أنا الذي بدأت الدنيا ولم تكن شيئًا، وأنا الذي أُعيدُها كما بدأتُها.

لا يتعاظمه ذنبٌ أن يغفرَه، ولا حاجةٌ يُسأَلُها أن يعطيها؛ لو أن أهل سماواته وأهل أرضه وأول خلقه وآخرهم وإنسهم وجِنَّهم كانوا على أتقى قلبِ رجلٍ منهم ما زاد ذلك في ملكه شيئا، ولو أن أول خلقه وآخرهم وإنسهم وجِنَّهم كانوا على أفجر قلبِ رجلٍ منهم ما نقص ذلك من ملكه شيئًا، ولو أن أهل سماواته وأهل أرضه وإنسهم وجِنَّهم وحيَّهم وميتهم ورطبهم ويابسهم قاموا في صعيدٍ واحدٍ فسألوه فأعطى كُلًّا منهم ما سأله ما نقص ذلك مما عنده مثقال ذرة.

ولو أن أشجارَ الأرض كلها -من حين وُجدت إلى أن تنقضي الدنيا- أقلامٌ، والبحرَ وراءه سبعة أبحُرٍ -تمدُّه من بعده- مِدادٌ، فكُتِبَ بتلك الأقلامِ وذلك المداد لَفنِيَت الأقلام ونفد المداد ولم تنفد كلمات الخالق تبارك وتعالى، وكيف تفنى كلماته جل جلاله وهي لا بداية لها ولا نهاية؟! والمخلوقُ له بدايةٌ ونهاية، فهو أحقُّ بالفناء والنفاد، وكيف يُفنِي المخلوقُ غيرَ المخلوق؟!

هو الأول الذي ليس قبله شيءٌ، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء، تباركَ وتعالى.

أحقُّ مَن ذُكِر، وأحقُّ من عُبد، وأحقُّ من حُمِد، وأولى من شُكِر، وأنصَرُ من ابتُغِي، وأرأفُ من مَلَك، وأجودُ من سُئل، وأعفى من قَدَر، وأكرمُ من قُصِد، وأعدلُ من انتقم.

حكمُه بعد علمه، وعفوُه بعد قدرته، ومغفرتُه عن عِزَّته، ومَنْعُه عن حكمته، وموالاتُه عن إحسانه ورحمته.

ما للعباد عليه حـقٌّ واجب كــلا ولا ســعيٌ لديــه ضائع
إن عُـذِّبـوا فبعدلِه أو نُعِّموا فبفضله وهـو الكريم الواسع

وهو الملك الذي لا شريك له، والفرد فلا نِد له، والغني فلا ظهير له، والصمد فلا ولد له ولا صاحبة له، والعليُّ فلا شبيه له ولا سَمِيَّ له، كل شيء هالكٌ إلا وجهه، وكل مُلكٍ زائلٌ إلا ملكه، وكل ظِلٍّ قالِصٌ إلا ظِلُّه، وكل فضلٍ منقطعٌ إلا فضله.

لن يُطاع إلا بفضله ورحمته، ولن يُعصى إلا بعلمه وحكمته، يُطاع فيَشكُر، ويُعصى فيتجاوز ويغفر، كل نقمة منه عدل، وكل نعمة منه فضل.

أقرب شهيد، وأدنى حفيظ، حالَ دون النفوس، وأخذ بالنواصي، ونسخ الآثار، وكتب الآجال، فالقلوب له مُفضِيَة، والسرُّ عنده علانية، والغيب عنده شهادة.

عطاؤه كلام، وعذابه كلام، ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس]»[1]. مَن عَلِم هذا فلا بد أن يعظِّم الرب عز وجل.

هذا ومِن أبلغ أسباب المعرفة بالله العلمُ بكتابه عز وجل وبسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وما تفرَّع عنهما من عقائد السلف وأصحاب الحديث، ثم العلم بطريق التعبُّد إليه، وتعظيم شرعه بالتفقه في الدين ليُلتزم به في المعاملات الشخصية والعامة، ويُؤخذ به في الأحكام السلطانية والسياسات على مستوى الدولة، والأخلاق والآداب على نطاق الفرد، والأسوة في ذلك هم أعلام التعظيم من الأئمة وأعلام الأمة، ولا يستتم إحكام ذلك إلا بمعرفة قدرٍ من علوم الآلة العاملة في نصوص الشريعة.

ثانيًا: التقرب إلى الله والتعبُّد له.

يَرْسخ التعظيم في النفس ويُغذى وينمو بزيادة العمل الموجب له، فالتعظيم بمثابة الشرارة، والطاعة بمثابة ما يُورى به، فتتولد بذلك النار العظيمة!

وملاحظٌ في حياة الناس أن ما في القلب من اعتقاداتٍ ومشاعر قد تُغفَل فيعتريها الذبول إلى أن تضمحل، وبالمران تزداد وتربو وتزهر ثم تثمر، فإذا انقطعتَ عن أحدهم وطالت المدة ولم تعامله -لم تصله بزيارةٍ ولا بهدية ولا باتصال، وأغفلت ذكره بلسانك فلم تدعُ له، ولم يجل بخاطرك- ضَعُف ما بينكما، وربما وقعت الجفوة، وهذا مَثَلٌ يقرِّب شيئًا من معنى ذكر الله والتقرب إليه، وإلا فلله المثل الأعلى، وليس كمثله شيء.

ودوام العمل بالطاعة والمثابرة على العبادة ينمي التعظيم إلى ما شاء الله، وكما أن علاقة العمل بزيادة الإيمان متلازمة، فكذلك علاقة العبادة والتذلل لله بالجوارح بتعظيم القلب متلازمة، قال الغزالي رحمه الله: «ومن يتواضع بقلبه لغيره فإذا عمل بموجبه ساجدًا له أو مقبِّلًا يده ازداد التعظيم والتواضع في قلبه، ولذلك تُعُبِّدْنا بالمواظبة على أفعالٍ هي مقتضى تعظيم القلب من الركوع والسجود ليزداد بسببها تعظيم القلوب،

(١) الوابل الصيب لابن القيم (ص: ٦٢ - ٦٤).

فهذه أمور يجحدها المتحذلقون في الكلام الذين أدركوا ترتيب العلم بسماع الألفاظ ولم يدركوها بذوق النظر»[1].

وفيما يأتي ذكر أبرز القُربات والعبادات وأثرها في تعظيم الله:

الصلاة

أثر الصلاة على تهذيب النفس وإصلاح القلب من العلم الذي يُدرك بالعمل، وقد جاءت النصوص منوهة بالعلاقة؛ قال الله عز وجل: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت]، فالصلاة باعثة على الطاعة، وذلك تعظيمٌ للأمر وللنهي كما روي عن ابن مسعود عند هذه الآية: «لا صلاة لمن لم يطع الله»[2]، وقال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه]؛ أي: لتذكرني فيها بالتسبيح والتعظيم، «فإذا لم يكن في قلبك للمذكور الذي هو المقصود والمبتغى عظمة ولا هيبة فما قيمة ذكرك؟!»[3]. وفي الصلاة من تعظيم الله بالقلب واللسان والأركان ما ليس في غيرها.

ذكر الشيخ عبد الرحمن الجزيري رحمه الله عند قوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون] أن الغرض الحقيقي من الصلاة إنما هو تعظيم الإله فاطر السماوات والأرض بالخشوع له والخضوع لعظمته، فلا يكون المرء مصليًا لربه حقًا إلا إذا كان قلبه حاضرًا مملوءًا بخشية الله وحده، فلا يغيب عن مناجاته بالوساوس الكاذبة أو الخواطر الضارة، ومَن يقف بين يدي خالقه وقلبه على هذه الحالة ذليلًا خاشعًا خائفًا وجِلًا من جلال ذلك الخالق القادر القاهر فإنه بذلك تصلح أعماله الظاهرة والباطنة، وتقوى علاقته بربه، ويستقيم مع عبادته تعالى، ويقف عند حدود

(١) الاقتصاد في الاعتقاد (ص: ٢٤٨).

(٢) رواه ابن المبارك في الزهد (١/ ٢٩٠) مرفوعًا ورواه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٤٥٥٤) وابن أبي حاتم في تفسيره (٩/ ٣٠٦٦) بمعناه موقوفًا على ابن مسعود.

(٣) إحياء علوم الدين للغزالي (١/ ١٥٠)

الدين، وينتهي عما نهاه عنه رب العالمين، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[1].

ومَن استحضر أنه في الصلاة يناجي ربه ويقف بين يديه أحدث له ذلك بمجرده من الذكرى ما يوجب التعظيم، وقد كان بعض السلف إذا قام إلى الصلاة ارتعد واصفرَّ لونه، فكُلِّم في ذلك فقال: «إني أقف بين يدي الله تعالى، وحُقَّ لي هذا مع ملوك الدنيا، فكيف مع ملك الملوك»[2]، وقالوا: كان علي بن الحسين إذا قام إلى الصلاة أخذته رعدة، فقيل له: ما لَك؟ فقال: «ما تدرون بين يدي مَن أقوم ومَن أناجي؟!»[3].

والصلاة أدعى العبادات إلى تعظيم الله عز وجل وأجَلُّها، وهي «أجمع خصلة من خصال الدين لتعظيم قدر الله، وأدلُّ شيء على إجلاله عز وجل، وذلك أن أولها الطهارة سرًّا وجهرًا، ثم جمع الهمة وإخلاء السر، وهو النية، ثم الانصراف عما دون الله إلى الله بالقصد إليه، وهو التوجه، ثم الإشارة برفع اليدين إلى نبذ ما ربط به، ثم أول أذكاره التكبير وهو النهاية في تعظيم قدر الله، وهو قوله: الله أكبر، ثم أول ثناء فيه ثناءٌ لا يشوبه ذكر شيء سواه وهو قوله: "سبحانك اللَّهُمَّ وبحمدك" إلى قوله: "ولا إله غيرك"، ثم قراءة كلامه، لا يجوز غيره، منتصبًا قد زَمَّ جوارحه هيبة وخشوعًا وإجلالًا وتعظيمًا، ثم تحقيق ما عبَّر بلسانه عن ضميره من التعظيم لله فعلًا وحركة، وهو الركوع والسجود، وأذكارُهما تنزيهُ الله وإجلاله وتعظيمه بقوله: "سبحان ربي العظيم" و"سبحان ربي الأعلى"، ثم مع كل حركة تكبير، وليست هذه الخصال بإجماعها في شيء من العبادات أجملَ منها في الصلاة، فكان قوله صلى الله عليه وسلم "جُعلت قرة عيني في الصلاة" عبارةً عن تعظيمه قدرَ الله تعالى»[4].

---

(١) انظر الفقه على المذاهب الأربعة للجزيري (١ / ١٥٨).

(٢) انظر تفسير ابن عطية المحرر الوجيز (٤ / ٣١٩).

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٣ / ١٣٣).

(٤) بحر الفوائد للكلاباذي (ص: ٢٦).

قال محمد بن نصر المروزي: «لا عمل بعد توحيد الله أفضل من الصلاة لله، لأنه افتتحها بالتوحيد والتعظيم لله بالتكبير، ثم الثناء على الله، وهي قراءة فاتحة الكتاب، وهي حمدٌ لله وثناءٌ عليه وتمجيدٌ له ودعاء، وكذلك التسبيح في الركوع والسجود، والتكبيرات عند كل خفضٍ ورفع، كل ذلك توحيدٌ لله وتعظيمٌ له، وختمها بالشهادة له بالتوحيد ولرسوله بالرسالة، وركوعها وسجودها خشوعًا له وتواضعًا، ورفع اليدين عند الافتتاح والركوع ورفعُ الرأس تعظيمًا لله وإجلالًا له، ووضع اليمين على الشمال بالانتصاب لله تذللًا له وإذعانًا بالعبودية»[1].

الزكاة

الناظر في كتاب الله يلحظ علاقة الفرائض العظام وشعائر الإسلام بتعظيم أمر الله ونهيه، واستقامة السلوك وإصلاح القلب، كما في قوله تعالى في فريضة الزكاة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة]، فالزكاة طُهرةٌ وتكفيرٌ ورعايةٌ للتفريط في النهي من جهة، ثم هي تزكيةٌ للنفس وزيادةٌ لها في الخير باعثةٌ على ازدياد تعظيم المنعم وأمره، تُطيِّب النفس لتقبل الأمر وتمتثله، وفيها من تزكية النفس وتربيتها على تعظيم أمر الله ما هو ظاهر، فإن مَن هان عليه بذل ماله الذي جمعه منشرحًا بذلك صدره، سخيةً به نفسه، لله عز وجل وبأمره، هان عليه أمر الدنيا وما سواه من محبوباتها، وقدَّم أمرَ الله عليها.

الصيام

وأما الصيام فقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة]، فجعل الحكمة التقوى، وحقيقتها تعظيم الأمر والنهي، فالتقوى أن تجعل بينك وبين الله وقاية بفعل أمره وترك نهيه، والصائم معظِّم لربه، معوِّدٌ النفس على التعظيم، حابسٌ نفسه عن المباح رعاية لأمر ربه، يعوِّد النفس التحرُّز من الدقيق واليسير رعاية لنظر الله، يترك ما يشتهي إذعانًا

(١) تعظيم قدر الصلاة (١ / ٢٦٨).

لله تعالى، وإذا ترك العبد المباحَ المشتهى لله كان أولى به وأهون عليه حبس نفسه عن الحرام والخبيث من الأقوال والأفعال، وقد يلمح المتلمح حكمة التشريع في ذلك، من نحو قوله صلى الله عليه وسلم: «من لم يدَع قولَ الزور والعملَ به فليس لله حاجةٌ في أن يدَع طعامه وشرابه»[1]، وقوله: «كل عملِ ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به، والصيام جُنَّة، وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يَرْفُثْ ولا يَصْخَبْ، فإن سابَّه أحدٌ أو قاتله فليقل: إني امرؤٌ صائم»[2]. وبالجملة فالصوم يمنع سَورَة النفس، ويزكي القلب بصرفه عن الشهوة، ويورث العبد انكسارًا بين يدي ربه، وانقيادًا له وتعظيمًا.

الحج

وأما الحج فقد قال عز وجل: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة]، فهو فريضةٌ تُمرِّن العبدَ على تعظيم النهي، وتُزوِّده من الطاعة وتعظيم الأمر، وتحمله على تقوى الرب عز وجل؛ يبذل فيها المال تعظيمًا لأمر ربه، ويُجهِد فيها البدن تعظيمًا لأمر ربه، وفيه أيضًا تعظيم شعائر الله، وتعظيمها تعظيمٌ لله.

وقد جاء الأمر بتعظيم شعائر الله وحرماته في سياق الحج؛ قال عز وجل: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾ [الحج].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (١٨٠٤).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (١٨٠٥) ومسلم في صحيحه (١١٥١).

الذكر والدعاء

الجوارح إذا تمرَّنت بأنواع العبادات نشطت في التعظيم، وتعظيمها سببٌ لازدياد تعظيم القلب، على ما تقدم، واعتبره بذكر الرعاية، كأن يقول: الله معي، والله ناظر إلي، الله شاهدي، ونحو ذلك مما يستعمل لتقوية الحضور مع الله، فهذا قولٌ له أثرٌ في القلب يستحضر به شهودَ الله تعالى عملَه، ويدعوه إلى تعظيمه، وهكذا التعظيم باللسان والجوارح يستدعي في القلب زيادة التعظيم، ولأجل هذه العلاقة كان الذكر باللسان مع حضور القلب أجلَّ أنواع الذكر وأعلاها.

والمقصود هو أن تعظيم الله بذكره والإكثار منه يزيد التعظيم في القلب وينميه، وكذلك تعظيمه بأنواع العبادات القولية والعملية لما تقدم، ولما يشهده الذاكر من أثر ذكر الله تعالى بأسمائه، والثناء عليه وتعظيمه، في إجابة دعائه، وقضاء حاجاته.

وقد ذكر ابن القيم في الوابل الصيب جملةَ أخبار منها حديث بريدة الأسلمي الذي رواه أهل السنن وابن حبان في صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلًا يدعو وهو يقول: اللَّهُمَّ إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت، الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كُفُوًا أحد، فقال: «والذي نفسي بيده، لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى»[1]، وروى أبو داود والنسائي من حديث أنس أنه كان مع النبي صلى الله عليه و سلم جالسًا ورجلٌ يصلي ثم دعا: اللَّهُمَّ إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، المنان، بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم، فقال النبي صلى الله عليه و سلم: «لقد دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى»[2]، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الدعاء يُستجاب إذا تقدَّمه هذا الثناء والذكر، وأنه اسم الله الأعظم، فكان ذكر الله عز وجل والثناء عليه أنجح ما طلب به العبد حوائجه.

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٨٥٧) وأبو داود (١٤٩٣) والترمذي (٣٤٧٥) في سننهم، وابن حبان في صحيحه (٨٩٢).

(٢) رواه ابن ماجه (٣٨٥٨) وأبو داود (١٤٩٥) والنسائي (١٣٠٠) في سننهم، وابن حبان في صحيحه (٨٩٣).

ثم قال ابن القيم رحمه الله: «وهذه فائدة أخرى من فوائد الذكر والثناء، أنه يجعل الدعاء مستجابًا، فالدعاء الذي تَقدَّمه الذكر والثناء أفضل وأقرب إلى الإجابة من الدعاء المجرد، فإن انضاف إلى ذلك إخبار العبد بحاله ومسكنته وافتقاره واعترافه كان أبلغ في الإجابة وأفضل، فإنه يكون قد توسل إلى المدعو بصفات كماله وإحسانه وفضله، وعَرَّض بل صرَّح بشدة حاجته وضرورته وفقره ومسكنته، فهذا المقتضي منه، وأوصاف المسؤول مقتضٍ من الله، فاجتمع المقتضي من السائل والمقتضي من المسؤول في الدعاء، وكان أبلغ وألطف موقعًا، وأتمَّ معرفة وعبودية»[1].

ومن هذا الجنس ذكر المسألة عمومًا، وأبلغه فيما نحن فيه أن يسأل الله أن يرزقه تعظيمه، وتعظيم حرماته وشعائره وشرعه، وأن يعينه على ذلك، ويشرح صدره له، ويوفقه إليه.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر].

وكثير من الأوراد الشرعية ووظائف اليوم والليلة اشتملت على ما يستدعي التعظيم من أنواع الذكر الثلاثة: رعايةً، وثناءً، وسؤالًا، وفيها من المصالح التي يحصلها الذاكر في نفسه وأهله ودنياه، ما يقتضي له تعظيم الله سبحانه وتعالى، والموفق من وفقه الله لطاعته.

ثالثاً: مراقبة الله عز وجل.

استحضار رقابة الله عز وجل أثناء التعبُّد له والتقرُّب إليه من أكبر ما يُثبِّت التعظيم في القلب وينميه، وهو أساس الإحسان الذي هو أعلى مراتب الدين: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[2]، وهو من أجلِّ ثمرات العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فيستحضر العبد أن الذي يطَّلع عليه هو ربٌّ سميع قريب، يعلم السرَّ وأخفى،

---

(١) الوابل الصيب (ص: ٨٩ - ٩٠).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٥٠) ومسلم في صحيحه (٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يثيب على الطاعة ويعاقب على المعصية، فيتزوَّد العبد من طاعته وإجلاله، ويتناهى عن المعاصي والسيئات.

وضد ذلك: حالُ من يراقب الله إذا شهده الناس وينسى الله إذا غابوا! وقد جاء عن ثوبان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لأَعْلَمَنَّ أقوامًا من أمتي يأتون يوم القيامة بحسناتٍ أمثال جبال تهامة بِيضًا، فيجعلها الله عز وجل هباءً منثورا»، قال ثوبان: يا رسول الله؛ صِفْهُم لنا، جَلِّهِم لنا أن لا نكون منهم ونحن لا نعلم، قال: «أمَا إنهم إخوانكم ومن جلدتكم ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم أقوامٌ إذا خَلَوا بمحارم الله انتهكوها»[1].

قال رجل لوهيب بن الورد: عظني! قال: «اتق أن يكون الله أهون الناظرين إليك»[2].

قيل لبعض الأعراب وقد طال عشقه بجارية: ما أنت صانعٌ لو ظفرت بها ولا يراكما غير الله عز وجل؟ قال: «إذن لا واللهِ؛ لا أجعله أهون الناظرين! لكن أفعل بها ما أفعله بحضرة أهلها»[3].

وقال يحيى بن معاذ: «من ستر عن الناس ذنوبه، وأبداها للذي لا يخفى عليه شيء في السماوات والأرض، فقد جعل ربَّه أهون الناظرين إليه! وهو من علامات النفاق»[4]؛ قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف].

قال الحارث المحاسبي: «إذا حملت وعاءً من أوعية الشر فإنك ترتعد خوفًا أن يبدو للناس شيءٌ مما فيه من الشر، فمتى يصلح ما بينك وبين الله هيهات... ما ظنك بمن يكره أن

(١) رواه ابن ماجه في سننه (٤٢٤٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٠٥).

(٢) انظر حلية الأولياء لأبي نعيم (٨ / ١٤٢).

(٣) رواه الخرائطي في اعتلال القلوب (٢ / ٢٩٧).

(٤) تفسير السلمي (٢ / ٢٣٦)، وتفسير الرازي (٢٧ / ١٩٥).

يطلع الناس منه على ما يكره الله! ولا يستحيي أن يطلع الله منه على ما يكره»[1]، ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾ [البلد].

وروى عاصم الدمشقي عن آدم بن أبي إياس «أنه ربما جثا على ركبتيه قبل مجلس التحديث وقال: واللهِ الذي لا إله إلا هو؛ ما من أحدٍ إلا وسيخلو به ربه ليس بينه وبينه ترجمان، يقول الله له: ألم أكن رقيبًا على قلبك إذ اشتهيتَ به ما لا يحل لك عندي؟! ألم أكن رقيبًا على عينيك إذ نظرتَ بهما إلى ما لا يحل لك عندي؟! ألم أكن رقيبًا على سمعك إذ أنصتَّ به إلى ما لا يحل لك عندي؟! ألم أكن رقيبًا على يديك إذ بطشتَ بهما إلى ما لا يحل لك عندي؟! ألم أكن رقيبًا على قدميك إذ سعيتَ بهما إلى ما لا يحل لك؟! آستحييت من المخلوقين وكنتُ أهون الناظرين إليك؟!»[2].

رابعًا: الدعوة إلى تعظيم الله عز وجل.

الدعوة إلى تعظيم الله عز وجل واحتمال المشاق فيها والصبر عليها -وهذه أمور ملازمة لدعوة الحق- يتسبب في علاقة متينة بين الداعي والمدعو إليه، والحاض والمحضوض عليه، إن صاحبته معرفة وإخلاص؛ معرفةٌ بقدر ما يدعو إليه، وإخلاص لمن يدعو إليه، فلا يطلب بدعوته جاهًا أو مالًا أو غرضًا من أغراض الدنيا.

وإذا كنت تجد كثيرًا ممن يدعون إلى مباحٍ من تجارة أو لهو، بل إلى باطلٍ من اللعب ومنكرٍ من القول أو الفعل؛ إذا كنت تجد عندهم من التعصب إلى ما يدعون إليه، وإيثاره على غيره، والتمسك به ما ليس عند غيرهم، فحريٌّ بالداعي إلى أعظم الحق، المشتغل به، أن يكون به أقول وإليه أسبق.

ومن شأن الداعي أن يسبق المدعو إلى ما يدعو إليه، وأن يكون أسوة فيه، معرِّفًا بطرائقه، عارفًا بما ينافي دعوته، قادرًا على جواب ما يشكل على الناس فيه، وما يُورَد عليه من شبهات، أرسخ فيه.

---

(١) آداب النفوس للمحاسبي (ص: ١٨٦).

(٢) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٥ / ٢٩٤).

ومن تأمل وجد أكمل الناس تعظيمًا دعاتهم إلى تعظيم الله عز وجل من الأنبياء والمرسلين، ومن تبعهم بإحسان، وهلم جرًّا إلى يوم الدين، وأحوال الأنبياء في تعظيم الله عجيبة! فمن صابرٍ ألف عامٍ يدعو امتثالًا لأمر الله، ومن مفارقٍ للأهل والأوطان بأمر الله، ومن مُضجعٍ للذبح ولده تعظيمًا لأمر الله، ومن مذبوحٍ في ذات الله! ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران][1].

ومن هذا الجنس تربية الأهل والأبناء على تعظيم الله عز وجل، والتذكير به تعالى في التوجيه عند أمرهم بمعروفٍ أو نهيهم عن منكر، والقراءة في مجالس الأسرة فيما يخدم هذا الغرض.

ومن هذا الجنس أيضًا تربية الناشئة في المدارس والمحاضن التربوية من قِبَل الأستاذ أو المرشد على تعظيم الله عز وجل ومراقبته، والمحاضرة في ذلك، والتوجيه إلى القراءة فيه.

ومنه كتابة المقالات وإقامة المحاضرات وإلقاء الخطب في تعظيم الله جل وعز.

ومنه إضافة محتوى إلى وسائل التواصل الاجتماعي المعاصرة، تُنبه الناس إلى عظمة الله، وتدعوهم إلى مراقبته وإجلاله عز وجل.

والدعوة إلى تعظيم الله عز وجل مما تُدخل صاحبها في زمرة من قال الله فيهم: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت]، وقال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران]، ومن وُعِد بالفلاح فهو على خير.

على أن العبد عليه أن يحذر من أن يكون فتيلًا يضيء وهو محترق! يُذكِّر بالله وينساه، على ما قال الجُنَيْد رحمه الله: «كنت بين يدي السَّرِي السَّقَطِي ألعب وأنا ابن سبع سنين، وبين يديه جماعة يتكلمون في الشكر، فقال لي: يا غلام! ما الشكر؟ فقلت: أن لا يعصي

(١) جاء في القراءة الأخرى للآية: {وكأين من نبي قُتِل معه ربيون كثير}؛ قرأ بها نافع وابن كثير والبصريان؛ انظر النشر في القراءات العشر لابن الجزري (٢ / ٢٤٢).

الله بنعمه، فقال لي: أخشى أن يكون حظك من الله لسانك! قال الجنيد: فلا أزال أبكي على هذه الكلمة التي قالها السري لي»[1].

وقال ابن الجوزي يومًا في مناجاته: «إلهي لا تعذب لسانًا يُخبر عنك، ولا عينًا تنظر إلى علومٍ تدل عليك، ولا قدمًا تمشي إلى خدمتك، ولا يدًا تكتب حديث رسولك، فبعزتك لا تدخلني النار، فقد علم أهلها أني كنت أذبُّ عن دينك»[2].

ولم يزل هذا ديدن العقلاء؛ يدعون إلى الهدى ويخشون مغبّة التقصير أن يمسهم نصيب من قوله عز وجل: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة]، وفي قوله ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ تعريضٌ بخروج مَن خالفت دعوتَه حالُه وفعالُه عن حد العقلاء! فحريٌّ بمن دعا أن يتحقق بما دعا إليه، وأن يكون سبّاقًا إليه، شعاره مع قومه قول خطيب الأنبياء: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود].

خامسًا: التفكر في خلق الله عز وجل.

إن مَن تفكر في مخلوقات الله عز وجل علم أن خالقها عظيمٌ قادر، على ما قال الأعرابي: «البَعْرَة تدل على البعير، والروث على الحمير، وآثار الأقدام على المسير، فسماءٌ ذات أبراج، وأرضٌ ذات فجاج، وبحارٌ ذات أمواج؛ أما تدل على الصانع الحليم العليم القدير»[3].

وبالتنبيه على البدائع والصنائع أرشد أهلُ العلم مَن ضلَّ إلى تعظيم المبدع الصانع؛ ذكروا عن الإمام أحمد تنبيهه على عظمة الله وقدرته بمثل قلعةٍ حصينة ملساء لا فرجة فيها، ظاهرها كالفضة المذابة، وباطنها كالذهب الإبريز، ثم انشقت الجدران،

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٧ / ٢٥٣).

(٢) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (٢ / ٤٩٩).

(٣) ذكره الرازي في تفسيره (٢ / ٩١).

وخرج من القلعة حيوانٌ سميعٌ بصير! فلا بد من الفاعل القدير! عنى بالقلعة: البيضة، وبالحيوان: الفرخ[1].

وقال ابن الجوزي رحمه الله: «ليس العجب تغذِّي المولود في حال الحمل بدم الحيض لاتصاله بالحي! إنما العجب أن البيضة إذا انفصلت من الدجاجة فمن البياض يُخلق الفرخ، وبالـمُحِّ يتغذى؛ قد أُعطِي المخلوق زادَه قبل سفر الوجود!

إذا انفقأت بيضة الغراب خرج الفرخ أبيض، فتنفر عنه الأم لمباينته لونها، فيبقى مفتوح الفم، والقدَرُ يسوق إلى فيهِ الذبابَ، فلا يزال يتغذى به حتى يسوَدَّ لونه فتعود إليه الأم.

فانظروا إلى نوائب اللطف، وتلمَّحوا شفقة طير الرحمة!

ألهَمَ النملة ادخار القوت، ثم ألهمها كسر الحب قبل ادخاره كيلا ينبت! والكسرة إن كُسرت قطعتين تنبت، فهي تكسرها أربعًا.

وفي كل شيءٍ له آيةٌ   تدل على أنه واحدُ

... لقد نادت عجائب المخلوقات على نفسها؛ ترشد الغافلين إلى باب الصانع، غير أنهم عن السمع لمعزولون»[2].

إن في الكون من حولنا أنَّى توجهنا آيات باهرات، لسان حالها هاتفٌ بتمجيد خالقها، ولكن الاعتياد يضرب بحجاب الغفلة على القلب فلا يُبصر ولا يتدبَّر ما في المخلوقات من الدلالة على عظمة ربنا جل وعلا، وتأمل لو رأينا إنسانًا يغوص في الماء ويتنفس في أعماق البحار لاستعظمنا ذلك! ولكنَّا لا نعجب إذا رأيناه في مخلوقات ألِفنا ذلك منها، وحقٌّ علينا أن نُسبِّح من أنشأها تلك النشأة! وكذلك لا نعجب ولا نستعظم تنسُّم الناس الهواء، واستمداد أجسامهم منه ما يُصِحُّ أبدانهم ويَصلُح لها، ومنعها ما يُضِرُّ بها أو لا ينفعها! وكذلك الشمس نُبصرها فوقنا كل حين، وتحجب العادة عن

---

(١) انظر الأخبار في هذا الشأن فيما سبق من تفسير الرازي، وتفسير اللباب لابن عادل (١ / ٤١٤)، وتفسير ابن كثير (١٩٧/١) وما بعدها.

(٢) اللطائف لابن الجوزي (ص: ١٢٠)، وانظر ما ذكره أيضًا في التبصرة (١ / ٥٩ - ٦١) وصيد الخاطر (ص: ١٥٨ - ١٥٩).

أعيُن كثيرٍ من الناس عظمتها، بل عظمة باريها! ولو طرأ عليهم مذنَّبٌ أو نجمٌ أو جرمٌ سماويٌّ عظيمٌ دونها لاستعظموه! أما الفطن العاقل فيشهد بأن السماوات والأرض آياتٌ دالَّات، وشواهدُ قائمات، كلٌّ يؤدي عن الله الحجة، ويشهد له بالربوبية، ويغرس اليقين بعظمته وجلاله.

وآيات الكتاب ترفع السُّجُف وتكشف الحُجُب لمن تدبَّرها وأقبل عليها، فيُبصر عظمة خالق آيات الكون التي ينظر إليها؛ تُنبِّه آيات الكتاب غفلته فيحدث له عند رؤية آيات الكون من تعظيم ربه وتمجيده ما لا يفقهه الجاهلُ بربه العالم بمخلوقاته وإن أغرق في تدبُّر سُبل الاستفادة من تلك المخلوقات لحاجاته الدنيوية! فتراه عالـمًا بدقائقها وأوجه التصرف فيها، غافلًا عن دلالتها الجليَّة الموجبة تعظيم باريها، هُدي إليها مَن دونه ذكاءً وفطنة لـمَّا أقبل على كتاب ربه، وقَبِل هدايته. تأمل كيف ذكَّر الله مَن غفل عن قدرته على إعادة الخلق بآيةٍ مشهودة يبصرها، لكنه حُجِب عن الاستدلال بها على كمال القدرة، فقال سبحانه في كتابه: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [يس]، وتأمل تعظيم الله عز وجل نفسه بهذه الآية حيث يقول: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الواقعة]، وتنبيه آيات الكتاب وتذكيرها بمواطن العبرة في آيات الكون كثيرة، تُحدِث لمن أقبل على كتاب ربه مزيد اعتبار بمخلوقاته.

وعجيبٌ أمر الإنسان؛ يعلو فوق أرضٍ خلقها ربه، ويطغى تحت سمائه! لا يَقْدُر الجليل الذي تخضع له أرضٌ ما ذلك البشر إلا جرمٌ ضئيل عليها! القملة في الرأس أعظم منه في الأرض! يعصي ربًّا تسجد له الشمس التي تسبح في سماواتٍ فسيحة، مليئة بنجوم عظيمة، وراءها مجرات هائلة، تفصلها ألوف السنوات الضوئية، كلها خاضعة تُسبِّح بحمد الكبير المتعال! ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء]، قد عرفَت تلك المخلوقات قدرها، فخضعت لعظمة ربها! فما هي إذا ما نسبْتَها إلى كرسي الرحمن إلا كحلقة أُلقيت بأرضٍ

فلاة! فكيف بعرشه سبحانه! وكل ذلك مربوبٌ خاضعٌ لربه، ثم يأتي ذلك الجرم الضئيل الحائر، الغشوم الجائر، الضعيف القاصر، العجول القتّار، الكنود الكفّار، الذي يتقلب في نعم الله وآلائه آناء الليل والنهار، وُجودُه بفضله ونعمته، وبقاؤه بحفظه ورعايته؛ يأتي ليقول للحق إذا أمر: لا! ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ٧٢﴾ [الأحزاب]، ما عرف قدره جل جلاله ولا عرف قدر نفسه! وحقيق عليه أن يعتبر بما يرى فيقدس ربَّه ويُجلَّه.

لله في الآفــــاق آيــــات	لعل أقلها هو ما إليــه هداكا
ولعــل مــا في النفــس مــن آياتــه	عجبٌ عجابٌ لو ترى عيناكا
والــكــون مشحونٌ بــأسرارٍ إذا	حــاولــت تــفــسيرًا لهــا أعياكا
قل للطبيب تخطفته يد الردى	يــا عارف الأدواء مــن أرداكا
قل للمريض نجا وعُــوفي بعدما	عجزت فنون الطب من عافاكا
قل للصحيح يموت لا مِن عِلَّة	مــن بالمنايا يــا صحيح دهــاكا
قل للبصير وكان يحــذر حفرة	فهوى بها من ذا الذي أهــواكا
بل سائل الأعمى خطا بين الزحام	بلا اصطدام مَــن يقود خطاكا
وإذا ترى الثعبان ينفث سمه	فاسأله من ذا بالسموم حشاكا
واسأله كيف تعيش يا ثعبان أو	تحيا وهـــذا الــسم يملأ فاكا
واسأل بطون النحل كيف تقاطرت	شهدًا وقــل للشهد من حلّاكا
وإذا رأيــت الحي يخرج من حنا	يــا مــيــتٍ فــاســأله مــن أحياكا
قل للهواء تحسه الأيــدي ويخفى	عن عيون النــاس من أخفاكا
قل للنبات يجف بعد تعهد	ورعايــــة مــن بالجفاف رمــاكا
وإذا رأيت النبت في الصحراء ير	بــو وحـــدَه فــاســأله مــن أربــاكا
وإذا رأيــت البــدر يــسري نــاشرًا	أنـــواره فـــاســأله مـــن أسراكا
قل للمرير من الثمار من الذي	بالمر مــن دون الثــمــار غــذاكا
وإذا ترى الجبل الأشــم مناطحًا	قمم السحاب فسله من أرساكا
وإذا رأيــت النهر بالعذب الزلا	ل جرى فسله من الذي أجراكا
وإذا رأيــت البحر بالملح الأجا	ج طغى فسله من الذي أطغاكا

وإذا رأيت الليل يغشى داجيًا	فاسأله من يا ليل حاك دجاكا
وإذا رأيت الصبح يسفر ضاحيًا	فاسأله من يا صبح صاغ ضحاكا
هذه عجائب طالما أخذت بها	عيناك وانفتحت بها أذناكا
يا أيها الماء المهين من الذي سواك	ومن الذي في ظلمة الأحشاء قد والاكا
ومن الذي تعصي ويغفر دائمًا	ومن الذي تنسى ولا ينساكا
يا أيها الإنسان مهلًا ما الذي	بالله جل جلاله أغراكا

وإن لما يلابسه الناس ويباشرونه أثرًا أبلغ في تقرير الأمور؛ شريطةَ أن تُستدعى الفكرة، ويُذكَّروا بمواضع العبرة، وشواهدُ التعظيم في مجريات الأحداث ونوازل الناس كثيرة، ينبغي أن يستفاد منها في التنبيه على عظمة الله، واستدعاء اعتقادها في النفوس، ومن المنهاج النبوي تقريرُ المعاني الإيمانية بما يلابسه الناس أو يشاهدونه، وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه و سلم مرَّ بجَدْيٍ أسكَّ ميت، فتناوله فأخذ بأذنه، ثم قال لأصحابه: «أيكم يحب أن هذا له بدرهم»؟ فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء؛ وما نصنع به؟ قال: «أتحبون أنه لكم؟»، قالوا: واللهِ لو كان حيًّا كان عيبًا فيه لأنه أسك، فكيف وهو ميت؟! فقال: «فوَاللهِ للدنيا أهون على الله من هذا عليكم»[1]، وهذا المنهج النبوي من أبلغ ما تقرر به المعاني في النفوس، وترسخ به المعتقدات في القلوب.

ومن هذا الباب: النظر فيما يطرأ على الناس من الأحداث العظيمة الدالة على قوة الله وضعفهم، فإن الله تعالى يرسل في كل وقتٍ تبصرةً وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، ومن ذلك الوباء الذي انتشر باسم "كورونا" وهو جند يسوق الناس، ويُذكِّرهم بعجزهم وضعفهم وذلِّهم، وقدرة بارئهم وقوته وعظمته وإن عَلَتْ مراتبُهم أو سَمَتْ منازلُهم، والعاقل من اعتبر بمن مضى من القرون وانقضى، وقد نبأنا الله من أخبارهم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم

(١) رواه مسلم في صحيحه (٢٩٥٧).

﴿مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام]، ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [المؤمنون].

سادساً: الإقبال على كتاب الله وتدبُّره.

ما عُرِف الله بأبلغ مما أرسل به رسله، والقرآن الكريم أعظم وأصح وأبين وأهدى ما أُرسلت به رسل الله قاطبة، فمن فهم كلام الله على مراد الله، وعرف ما وصف به نفسه فيه، وما شرعه من أحكام، وما قدَّره من أقدار وأجراه على الأمم من الأحوال، واعتبر بذلك؛ عظَّمه أيَّما تعظيم.

وفي القرآن أمور تدعو إلى تعظيم الله عز وجل، من تدبَّرها وتفكر فيها انتفع منها وازداد في مراتب التعظيم، ومن ذلك الآياتُ التي تذكر مُلك الله عز وجل وسلطانه وعظمته، والآيات التي تنزه الله وتقدسه إجمالًا أو تفصيلًا، والآيات التي تذكر صفات العظمة والكبرياء، والآيات التي تذكر عِظَم بعض مخلوقاته، والآيات التي تمجِّد من أفعاله سبحانه وتعالى، كقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص]، وقوله: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس].

وقد قال الله عز وجل في كتابه عن كتابه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر]، قال ابن كثير: «أي: فإذا كان الجبل في غلظته وقساوته لو فهم هذا القرآن فتدبَّر ما فيه

لخشع وتصدع من خوف الله عز وجل، فكيف يليق بكم يا أيها البشر أن لا تلين قلوبكم وتخشع وتتصدع من خشية الله؟!»[1].

وتأمل كيف انتهت الجِنُّ لـمَّا تدبَّروا كلام الله عما كانوا عليه، وانقلب عظيمهم سفيهًا، وعظَّموا ربهم ونزهوه أن تكون له صاحبة أو يكون له ولد: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۝٤﴾ [الجن].

وهكذا القرآن؛ إذا أقبل عليه العبد بقلبه متدبرًا أحدث له من التعظيم ما شاء الله جل جلاله، ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [الزمر: ٢٣].

قال ابن الجوزي: «بلغنا عن عبد الواحد بن زيد أنه قال: ركبنا في مركب فطرحتنا الريح إلى جزيرة، فإذا فيها رجلٌ يعبد صنمًا، فقلنا له: مَن تعبد؟ فأومأ إلى الصنم! فقلنا: إن معنا في المركب من يُسَوِّي مثل هذا؛ ليس هذا بإلهٍ يُعبد! قال: فأنتم لمن تعبدون؟ قلنا: الله عز وجل، قال: وما الله؟ قلنا: الذي في السماء عرشُه، وفي الأرض سلطانُه، وفي الأحياء والأموات قضاؤه، فقال: كيف علمتم به؟ قلنا: وجَّه هذا الملك إلينا رسولًا كريمًا فأخبرنا بذلك، قال: فما فعل الرسول؟ قلنا: لـمَّا أدَّى الرسالةَ قبضُه الله، قال: فما ترك عندكم علامة؟ قلنا: بلى؛ ترك عندنا كتاب الملك، قال: أروني كتاب الملك، فينبغي أن تكون كتب الملوك حِسانًا، فأتيناه بالمصحف، فقال: ما أعرف هذا! فقرأنا عليه سورةً من القرآن، فلم نزل نقرأ ويبكي حتى ختمنا السورة، فقال: ينبغي لصاحب هذا الكلام أن لا يُعصى، ثم أسلم وحملناه معنا»[2].

والمقصود أن تدبُّر القرآن من أعظم دواعي تعظيم الله عز وجل، فعليه سبحانه وتعالى يدل، وبه يُعلَم وتُعرَف أفعاله، وقد تضمن أنواع الحجج والبينات العقلية والوعظية التي تقيم الحجة وتدفع مكابرة الهوى، قال ابن تيمية رحمه الله: «ولهذا السماع -يعني سماع القرآن- من المواجيد العظيمة، والأذواق الكريمة، ومزيد المعارف والأحوال الجسيمة،

(١) تفسير ابن كثير (٨ / ٧٨).

(٢) صفة الصفوة لابن الجوزي (٢ / ٤٨٥).

ما لا يسعه خطاب، ولا يحويه كتاب، كما أن في تدبر القرآن وتَفَهُّمِه من مزيد العلم والإيمان ما لا يحيط به بيان»[1].

وبالجملة، فمن رام معرفة عظمة الله فالسبيل كما قال ابن القيم رحمه الله: «ومجاري هذه الفكرة تدبُّر كلامه، وما تعرَّف به سبحانه إلى عباده على ألسنة رسله، من أسمائه وصفاته وأفعاله، وما نزَّه نفسه عنه مما لا ينبغي له ولا يليق به سبحانه، وتدبُّر أيامه وأفعاله في أوليائه وأعدائه التي قصَّها على عباده، وأشهدهم إياها ليستدلُّوا بها على أنه إلههم الحقُّ المبين، الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ويستدلوا بها على أنه على كل شيء قدير، وأنه بكل شيء عليم، وأنه شديد العقاب، وأنه غفورٌ رحيم، وأنه العزيز الحكيم، وأنه الفعال لما يريد، وأنه الذي وسع كل شيء رحمة وعلمًا، وأن أفعاله كلها دائرة بين الحكمة والرحمة والعدل والمصلحة، لا يخرج شيء منها عن ذلك، وهذه الثمرة لا سبيل إلى تحصيلها إلا بتدبر كلامه والنظر في آثار أفعاله»[2].

---

(١) أمراض القلوب وشفاؤها (ص: ٧٥)، وانظر مجموع الفتاوى (١٠ / ٨١).

(٢) مفتاح دار السعادة (١ / ١٨٥).

أنواع من آيات الكتاب تحمل متدبرها على تعظيم الله:

مَن تدبَّر كتاب الله عز وجل وجد أنواعًا من الآيات كلها شاهدة على عظمة الله، ومن تدبرها فلا بد أن تُحدِث له من تعظيم الله بقدر ما وعى، ومن كان في التدبر أرسخ كان في التعظيم أبلغ، ومن تلك الأنواع:

أولاً: آيات الثناء والتنزيه.

ومنها مطالع السور الحامدات -وهُنَّ المستهلات بحمد الله- وهن: سورة الفاتحة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، والأنعام: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾، والكهف: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۝١﴾، وسبأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾، وفاطر: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾.

وكذلك مطالع الـمُسَبِّحات -وهن المستهلات بتسبيح الله[1]- وهن سبع سور: الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾، والحديد: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾، والحشر: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾، والصف: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾، والجمعة: ﴿يُسَبِّحُ

(١) لا يلزم أن يكون بناء سائر المسبحات والحامدات على ذلك، وقد يقع بناء غيرها عليه، ومن ذلك ما قرره د. توفيق زبادي في بحثه: بناء سورة الحاقة على تعظيم الله (ص: ٢٥٦) وما بعدها.

لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾، والتغابن: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾، والأعلى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾، «وإذا جَلَّ المعنى في تعظيم الله حَسُن الاستفتاح به، والفائدة فيه تعظيم ما ينبغي أن يُستفتح به على جهة التعظيم لله والتيمُّن بذكره»[1].

وهذه السور في دلالتها على التعظيم كشأن أكثر سور القرآن الكريم، فآيات التسبيح والتقديس كثيرة في القرآن، وكذلك الآيات المتضمنة صفات الجلال والعظمة والكبرياء، وما من سورة إلا وفيها من تعظيم الله عز وجل وجه -إما بتسبيحه أو تمجيده أو تعظيمه في ذاته أو صفاته أو حكمه أو شرعه- غير أن سور القرآن متفاضلة في ذلك، متباينة في موضوعاتها، وبناء بعضها على التعظيم أعظم من بعض، قال ابن الجوزي: «واللهِ لو أن مؤمنًا عاقلًا قرأ سورة الحديد وآخر سورة الحشر وآية الكرسي وسورة الاخلاص بتفكير وتدبرٍ لتصدَّع من خشية الله قلبُه، وتحيَّر في عظمة الله لُبُّه»[2].

وقال الشيخ الطاهر ابن عاشور في أثناء كلامه على سورة الحشر: «لما تكرر في هذه السورة ذِكْرُ اسم الله وضمائره وصفاته أربعين مرة؛ منها أربع وعشرون بذكر اسم الجلالة، وست عشرة مرة بذكر ضميره الظاهر أو صفاته العلية، وكان ما تضمنته السورة دلائل على عظيم قدرة الله وبديع تصرفه وحكمته، وكان ما حوته السورة الاعتبار بعظيم قدرة الله إذ أيد النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين ونصرهم على بني النضير ذلك النصر الخارق للعادة، وذكر ما حل بالمنافقين... وختم ذلك بالتذكير بالقرآن الدال على الخير، والمعرِّف بعظمة الله المقتضية شدة خشيته؛ عَقَّب ذلك بذكر طائفة من عظيم صفات الله ذات الآثار العديدة في تصرفاته المناسبة لغرض السورة، زيادةً في تعريف المؤمنين بعظمته المقتضية للمزيد من خشيته، وبالصفات الحسنى الموجبة لمحبته، وزيادةً في إرهاب المعاندين المعرضين من صفات بطشه وجبروته، ولذلك ذكر في هذه

(١) التفسير البسيط للواحدي (٢١ / ٤٤٥).

(٢) التذكرة في الوعظ (ص: ٧٣).

الآيات الخواتم للسورة من صفاته تعالى ما هو مختلف التعلق والآثار، للفريقين حظٌّ ما يليق به منها»[1].

ثانياً: آيات ذكر عظيم خلق الله.

الآيات التي فيها ذكر خلق السماوات والأرض وذكر خلق الإنسان وعظيم صنع الله عز وجل مقتضيةٌ لمن تدبرها تعظيمه تعالى، ومن تأمل عظمة مخلوقات الله التي وُصفت في كتابه دلَّته على عظمة خالقها، بل:

كُلُّ ما يُرتقى إليه بوهمٍ   من جلالٍ وقدرةٍ وسناءِ

فالذي أبدع البريَّة أعلى   منه سبحان مبدع الأشياءِ[2]

وكثيرًا ما يُمجِّد الله نفسَه ويقرن ذلك بذكر بعض شواهد عظمته من مخلوقاته، كما قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ [الملك]، ويدل الناس على قدرته بذكر مخلوقاته، فيحتج على من أنكر البعث بمبدأ أمره: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾ [يس]، وكذلك بقدرته على ما هو أظهر من مشهود مخلوقاته، ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨١ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس].

وأيضًا ينبه من أشرك فعظَّم بعض خلقه كتعظيمه إلى كفره وجوره بذكر شواهد عظمته في خليقته التي تجعل عدل غيره به كفرًا جليًّا وسفهًا، كقوله: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ

(١) التحرير والتنوير (٢٨ / ١١٧).

(٢) أبيات لأبي الفتح البستي؛ أنظر كتاب أحسن ما سمعت لأبي منصور الثعالبي (ص: ٩).

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت].

ومن ذلك ما جاء في آية الكرسي من بيان عظمة كرسيه سبحانه؛ ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[البقرة: ٢٥٥]، وهو موضع قَدَمَي الرب جل جلاله، فهذه عظمة الكرسي، فكيف بعظمة العرش، ثم كيف بعظمة رب العرش العظيم، ولهذا ذكر الله العرش وحَمَلَته واستواءه عليه في مواضع عدة من القرآن.

ثالثًا: آيات الأحكام والتشريع الحكيم.

من تأمل التشريعات المحكمة في القرآن الكريم أيقن بعظمة منزله، وعلم أنه لا قانون يضاهي ما شرعه، ولا دستور يقاربه، فشريعته أحسن الشرائع وأكملها، وافية بحاجات الروح والبدن، كافلة لسعادة الأولى والأخرى، شاملة لأمور الآخرة المضمنة في تشريع العبادات: صلاةً وزكاةً وصومًا وحجًّا وجهادًا، وأمور الدنيا من أنواع المعاملات: معاوضات ومطعومات ومناكحات ومخاصمات وعقوبات وتَرِكات، ولكل ذلك مُتعلَّقات إما تَقْدُم بين يديه كالطهارة قبل الصلاة أو تعقبه كالطلاق بعد النكاح، وقد هدانا الله عز وجل في كتابه لخير ذلك كله، كما قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الإسراء]، قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله: «هذه الآية الكريمة أجملَ الله جل وعلا فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم، لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة، ولكننا إن شاء الله تعالى سنذكر جُمَلًا وافرةً في جهاتٍ مختلفةٍ كثيرةٍ من هُدى القرآن للطريق التي هي أقوم بيانًا لبعض ما أشارت إليه الآية الكريمة، تنبيهًا ببعضه على كله من المسائل العظام، والمسائل التي أنكرها الملحدون من الكفار وطعنوا بسببها في دين الإسلام، لقصور إدراكهم عن معرفة حكمها البالغة، فمن ذلك توحيد الله جل وعلا، فقد هدى القرآن فيه للطريق التي هي أقوم الطرق وأعدلها، وهي توحيده جل وعلا في ربوبيته وفي عبادته وفي أسمائه وصفاته، وقد دل استقراء القرآن العظيم على أن توحيد الله ينقسم

إلى ثلاثة أقسام...»[1]، ثم فصَّل في أمر التوحيد، وذكر بعده جُملاً من الشريعة تدل على كمالها وحسنها، وسفه رأي من خالفها، وطيش حلمه!

وقد جاء التنبيه على عظمة الله وجلاله في سياق ذكر إنزال القرآن، كما قال تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾ [غافر]، وقال سبحانه: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝٣ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ۝٤ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٨﴾ [طه]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ۝٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ۝٤٢﴾ [فصلت]، وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٩٢﴾ [الشعراء].

رابعاً: آياتٌ فيها تعظيم العظماء لله عز وجل.

مما يستدعي تعظيم العبد لمولاه تدبُّرُ ما تضمنه كتابه عز وجل من الإخبار عن تعظيم رسل الله وملائكته وأوليائه ربَّهم عز وجل، بأقوالهم وأفعالهم، وإذا كان هذا حال عظماء الخلق فمَن دونهم أولى بأن يكون تبعًا لهم، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا۩ ۝٥٨﴾ [مريم]، وقال سبحانه: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ۝١٣﴾ [الرعد]، وقال جل وعلا: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ۩ ۝٥٠﴾ [النحل]، وقال: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ۝٢٨﴾ [الأنبياء]، وقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ۝٥٧﴾ [الإسراء]، فهؤلاء الخُلَّص من الخليقة مع اجتهادهم في العبادة ودأبهم على الطاعة يخشون ربهم ويخافونه، وينزهونه ويعظمونه، وهذا يبعث مَن تدبَّر القرآن وعَلِم حالَه من التقصير ومكانه من

---

(١) أضواء البيان (٣ / ٢٠).

أولئك إلى الاقتداء بهم، والأُسى تبعث على الاقتداء؛ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

خامساً: آيات الإخبار بأخذ الأمم ومؤاخذة المكذبين وما حل بهم في الدنيا.

مما يدعو إلى تعظيم الله عز وجل تدبُّرُ ما تضمنه الكتاب من أخبار أقوامٍ أخذهم الله فأصابهم عذابه في الدنيا لما استخفوا بأمره وخالفوا رسله ولم يقدروا الله حق قدره، مع الإخبار بما ادَّخره لهم في الآخرة من العذاب الشديد والنكال والوبيل.

فقال عز وجل في القوم الذين ما كانوا يرجون لله وقارًا: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةًۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾﴾ [الفرقان]، وقال في أحد طغاة البشرية الذين عَلَوا في الأرض ونازعوا الحقَّ حق الربوبية، ودعا الناس إلى تأليهه من دون الله فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾، قال الله عز وجل: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةًۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [القصص]، وقال: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الاعراف]، وقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ [القمر]، وقال في ثمود قوم صالح: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس]، وفي عاد قال: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةًۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت]، وقال عن جملة الأمم: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت]،

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود]، ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾﴾[النساء].

ولئن كان ما تقدم هذا يبعث على التأسي والمشابهة، فإن هذا باعثٌ على المجانبة والمخالفة لطريق المغضوب عليهم والضالين.

سادساً: آياتٌ تفيد كمال غنى الله عز وجل وشدة افتقار الخلق إليه.

الآيات التي تفيد كمال غنى الله عز وجل عن عباده، وشدة افتقارهم إليه في كل شؤونهم، موجِبة تذلُّلَهم له عز وجل وتعظيمَهم له، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ [فاطر]، ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد].

والعبد إذا تدبر نحو هذه الآيات وعلم حقيقة فقره اقتضى له ذلك تعظيم المنعم الذي هو فقير إليه، وتذلل إليه وأبدى افتقاره، و«الفقر الحقيقي: دوام الافتقار إلى الله في كل حال، وأن يشهد العبد في كل ذرةٍ من ذرَّاته الظاهرة والباطنة فاقةً تامة إلى الله تعالى من كل وجه، فالفقر ذاتيٌّ للعبد، وإنما يتجدد له لشهوده ووجوده حالًا، وإلا فهو حقيقة، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه:

والفقر لي وصف ذاتٍ لازمٌ أبدًا   كما الغنى أبدًا وصفٌ له ذاتي»[1].

و«فقر المخلوقات إلى الله بمعنى حاجتها كلها إليه، وأنه لا وجود لها ولا شيء من صفاتها وأفعالها إلا به، فهذا أول درجات الافتقار، وهو افتقارها إلى ربوبيته لها، وخلقه وإتقانه، وبهذا الاعتبار كانت مملوكةً له، وله سبحانه الملك والحمد، وهذا معلومٌ عند كل من آمن بالله ورسله الإيمانَ الواجب، فالحدوث دليل افتقار الأشياء إلى مُحدِثها، وكذلك حاجتها إلى مُحدِثها بعد إحداثه لها دليلُ افتقارها، فإن الحاجة إلى الرزق دليل افتقار المرزوق إلى الخالق الرازق، والصواب أن الأشياء مفتقرة إلى الخالق لذواتها لا لأمرٍ آخر جعلها

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٢ / ٤٤٠ - ٤٤١).

مفتقرةً إليه، بل فقرها لازمٌ لها، لا يمكن أن تكون غير مفتقرة إليه، كما أن غنى الرب وصفٌ لازمٌ له، لا يمكن أن يكون غير غني، فهو غني بنفسه لا بوصفٍ جعله غنيًّا، وفقر الأشياء إلى الخالق وصف لها، وهي معدومة وهي موجودة، فإذا كانت معدومة فقيل عن مطرٍ يُنتظر نزوله: هو مفتقر إلى الخالق؛ كان معناه: أنه لا يُوجد إلا بالخالق... وهذا الافتقار أمرٌ معلومٌ بالعقل، وما أثبته القرآن من استسلام المخلوقات وسجودها وتسبيحها وقنوتها أمرٌ زائدٌ على هذا عند عامة المسلمين من السلف وجمهور الخلف»[1].

والشاهد أن من أبصر حقيقة نفسه حقق افتقاره واقتضى له ذلك تعظيم بارئه عز وجل، ومما يعين العبد على ذلك تدبُّرُ الآيات التي تُذكِّره بذلك، كقوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣)﴾ [النحل]، وقوله: ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩)﴾ [الرحمن]، وقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢)﴾ [النمل].

سابعاً: آيات الإنعام.

قريبٌ مما سبق الآياتُ التي فيها إنعام الله على عباده بأنواع النعم، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣)﴾ [فاطر]، وقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)﴾ [البقرة]، وكما جاء في سورة النحل التي هي سورة النِّعَم، فإن الله ذكر في أولها أصول النعم، ثم ذكر بعد ذلك مكملاتها ومتمماتها، ولذلك قال في بيان تمام النعم: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١)﴾ [النحل].

و«ليس الغرض من الدلائل القرآنية المجادلة، بل الغرض منها تحصيل العقائد الحقَّة في القلوب، وهذا النوع من الدلائل أقوى من سائر الطرق في هذا الباب، لأن هذا النوع من الدلائل كما يفيد العلم بوجود الخالق فهو يُذكِّر نِعَمَ الخالقِ علينا، فإن الوجود والحياة من

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١ / ٤٥ - ٤٦)، وانظر كلامه في الصفدية (٢ / ١٨٩).

النعم العظيمة علينا، وتذكير النعم مما يوجب المحبة وترك المنازعة وحصول الانقياد، فلهذا السبب كان ذكر هذا النوع من الأدلة أولى من سائر الأنواع.

واعلم أن للسلف طُرقًا لطيفةً في هذا الباب؛ يروى أن بعض الزنادقة أنكر الصانع عند جعفر الصادق رضي الله عنه، فقال جعفر: هل ركبت البحر؟ قال: نعم! قال: هل رأيت أهواله؟ قال: بلى؛ هاجت يومًا رياح هائلة فكسرت السفن وغرَّقت الملاحين، فتعلَّقت أنا ببعض ألواحها، ثم ذهب عني ذلك اللوح فإذا أنا مدفوع في تلاطم الأمواج حتى دُفعت إلى الساحل، فقال جعفر: قد كان اعتمادك من قبل على السفينة والملَّاح، ثم على اللوح حتى تنجيك، فلما ذهبت هذه الأشياء عنك؛ هل أسلمت نفسك للهلاك أم كنت ترجو السلامة بعد؟ قال: بل رجوت السلامة، قال: ممن كنت ترجوها؟ فسكت الرجل، فقال جعفر: إن الصانع هو الذي كنت ترجوه في ذلك الوقت، وهو الذي أنجاك من الغرق، فأسلم الرجل على يده»[1].

وهذا من جنس إرشاد النبي صلى الله عليه وسلم حُصينًا رضي الله عنه إلى التوحيد ونبذ الشرك بتمجيد الذي ينعم وينجي؛ على ما يروى في الخبر عن عمران بن حصين رضي الله عنه، قال: «قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي: يا حصين؛ كم تعبد اليوم إلهًا؟ قال أبي: سبعة؛ ستةً في الأرض وواحدًا في السماء، قال: فأيُّهم تعدُّ لرغبتك ورهبتك؟ قال: الذي في السماء»[2].

ولا ينكر أثر رؤية الإنعام في تعظيم المنعم إلا جاحدٌ كنودٌ بليدُ المشاعر زمن الأحاسيس! أما المؤمن إذا تدبر الآيات التي فيها التذكير بنعم الله عليه فلا بد أن تُحدِث له تعظيمًا وامتنانًا وحمدًا وشكرانًا لله سبحانه، ولو استحضر فقدان النعمة أو فسادها لعلم عظمة الواهب وجلال قدرته؛ قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا

---

(١) تفسير الرازي (٢ / ٩٠ - ٩١).

(٢) رواه الترمذي في سننه (٣٤٨٣)، وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي (ص: ٤٥٢)، وضعفه يسير، احتج به ابن خزيمة في التوحيد (١ / ٢٧٨).

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص]، وقال: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الواقعة].

ثامناً: آيات الوعد والوعيد.

مما يدعو إلى تعظيم الله عز وجل تدبُّرُ آيات الوعد والوعيد، مع الآيات التي تصف ما في الآخرة من النعيم والفوز العظيم، أو العذاب والنكال الأليم!

فالمؤمن إذا سمع وعيدًا وعَلِم أن عذاب الله شديد اقتضى له ذلك غاية التعظيم للنهي، وإذا سمع وعدًا وعَلِم أن في الجنة ما لا أذنٌ سمعت ولا عينٌ رأت ولا خطر على قلب بشر من النعيم ازداد تعظيمًا للأمر، كما أن من رأى الخير وعَلِم قدره كان أسرع طلبًا له، ومن رأى الشر وعَلِم ضرره كان أعظم تنائيًا عنه.

ولهذا جاء في الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن لله ملائكةً يطوفون في الطرق، يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله تنادوا: هلُمُّوا إلى حاجتكم، فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، قال: فيسألهم ربهم وهو أعلم منهم: ما يقول عبادي؟ فيقولون: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك، فيقول: هل رأوني؟ فيقولون: لا واللهِ ما رأوك! فيقول: وكيف لو رأوني! فيقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيدًا وتحميدًا، وأكثر لك تسبيحًا، فيقول: فما يسألوني؟ فيقولون: يسألونك الجنة، فيقول: وهل رأوها؟ فيقولون: لا واللهِ يا رب ما رأوها! فيقول: فكيف لو أنهم رأوها؟ فيقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصًا، وأشد لها طلبًا، وأعظم فيها رغبة! قال: فمم يتعوذون؟ فيقولون: من النار. فيقول: وهل رأوها؟ فيقولون: لا واللهِ يا رب ما رأوها! فيقول: فكيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فرارًا، وأشد لها مخافةً، فيقول: فأُشهِدُكم أني قد غفرت لهم»[1]،

(١) رواه البخاري في صحيحه (٦٤٠٨)، ومسلم في صحيحه (٢٦٨٩).

والذي يقرأ القرآن موقنًا به متدبرًا له، تحصل له من هذه الرتبة ما شاء الله بحسب قوة يقينه، وحضور قلبه، وكمال تدبره.

ومن الآيات في وصف نعيم الآخرة ما جاء في أهل الجنة من قوله تعالى: ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [يونس]؛ قال الشيخ الطاهر ابن عاشور: «تدل على أن ما هم فيه من النعيم هو غايات الراغبين، بحيث إن أرادوا أن ينعموا بمقام دعاء ربهم الذي هو مقام القرب لم يجدوا أنفسهم مشتاقين لشيء يسألونه، فاعتاضوا عن السؤال بالثناء على ربهم، فأُلهموا إلى التزام التسبيح، لأنه أدلُّ لفظٍ على التمجيد والتنزيه، فهو جامع للعبارة عن الكمالات»[1].

ومن أمثلة آيات الوعيد ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ ﴾ [غافر]؛ قال بعض السلف: «وكيف يكون للظالم حميمٌ أو شفيع والطالبُ له رب العالمين؟!»[2].

تاسعاً: آياتٌ يصرح الله تعالى فيها بتعظيم نفسه.

مما يحقق التعظيم في النفوس تدبُّرُ الآيات التي يعظِّم فيها ربنا نفسه تصريحًا، ويُمجِّد فيها ذاته، ويذكر فيها قدرته وصفات جلاله؛ جاء في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا أحد أحبُّ إليه المدح من الله، ولذلك مدح نفسه»[3]، قال ابن هبيرة: «إنه سبحانه لما عَلِم عجز الخلق عن مدحه تعالى مدح نفسه سبحانه»[4]، «فهو يحب حمد العباد له، وحمدُه لنفسه أعظم من حمد العباد له، ويحب ثناءهم عليه، وثناؤه على نفسه أعظم من ثنائهم عليه، وكذلك حبه لنفسه

(١) التحرير والتنوير (١١ / ١٠٣).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٦ / ١٦٥).

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٤٦٣٧) ومسلم في صحيحه (٢٧٦٠).

(٤) الإفصاح عن معاني الصحاح (٢ / ٦٠).

وتعظيمه لنفسه، فهو سبحانه أعلم بنفسه من كل أحد، وهو الموصوف بصفات الكمال التي لا تبلغها عقول الخلائق، فالعظمة إزاره والكبرياء رداؤه»[1].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾، وإذا تأملت موقع هذه الآيات علمت أن من أعظم ما يدعو إلى تعظيم الله عز وجل تدبرها؛ ألا تراه قال قبلها: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، ثم ذكر برهان ذلك بذكر ما فيها من صفة مُنزله جل جلاله.

وما يذكر فيه عز وجل قدرته ويمجد فيه نفسه ويعظم فيه شأنه بذكر قدرته وصفات جلاله فكثير، كقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر]، وقوله: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [البروج]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٤]، وقوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون]، وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾ [الرعد]، وقوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن]، والوجه ذو الجلال حق لصاحبه الإجلال، وقوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [الرحمن].

عاشرًا: آيات المعجزات.

مما يدل على عظمة ربنا عز وجل في القرآن ما أخبر به من آيات النبوات التي تُعرف بمعجزات الأنبياء، كإحياء الموتى من طيرٍ ودواب وبشر، كطير إبراهيم صلى الله عليه وسلم، وحمار عزير عليه السلام، وعزير نفسه مع خبر الألوف الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت، ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٨ / ١٤٤).

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾ [البقرة]، وتأمل قوله في خبر عزيز عليه السلام: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة]، فثبَّتت المعجزةُ اليقينَ بالقدرة.

ومنها قلب الجمادات أحياء، كطين عيسى وعصا موسى صلوات الله وسلامه عليهم، وليسا بأبلغ من خلق آدم من طين لازب! ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون].

ومنها نار الخليل التي غدت عليه بردًا وسلامًا بقول الله لها: ﴿كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ [الأنبياء:٦٩]، فانقلبت طبيعتها، وبطلت خاصتها في حقه عليه السلام وحده دون ما سواه!

ومنها ناقة صالح، ونومة أصحاب الكهف، ومائدة الحواريين، والمن والسلوى، كلها آيات دالة على العظمة والقدرة.

حادي عشر: آيات تبين حقائق معظمات الدنيا ضعفاً وقلة حيلة.

وهي الآيات التي تبين ما يعظمه العباد من المخلوقات على حقيقتها: ضعفًا وقلة حيلة وإذعانًا لأمر الله، وهذه تقطع العلائق بغير الله عز وجل من المخلوقات التي ربما اعتمد عليها أو ركن إليها أو عوَّل عليها بعض العباد، فزاحم بذلك تعظيم الله عز وجل بتعظيمها، فإذا علم العبد حقيقتها، وأنها لن تغني عنه شيئًا، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه، ولا مفر منه إلا إليه؛ اضمحل عنده تعظيم ما لم يكن تعظيمه من جهة الله، ورأى الأشياء على حقيقتها، ووضع الأسباب موضعها.

ومن هذا النوع قطع الله عز وجل علائق الشرك بنحو قوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت]، وماذا يغني بيت العنكبوت؟! هل يقي حرًّا أو بردًا أو يمنع آفة؟! فما أحمق

الذي يلجأ إليه من دون العزيز الذي لا يغلب، والحكيم القاضي بحكمه على كل شيء، الـمُحْكِم لصنعه، الواقع تدبيره على ما ينبغي من كل وجه.

وقال عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج]، فلما بيَّن حقيقة الشركاء ومبلغ ضعفهم رتَّب عليه الإنكار على من أشرك بهم أنهم لم يعظموه عز وجل حق تعظيمه.

وقال عز وجل: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ]، وانظر كيف أعقب ذكر حقيقة ما يشركون به بذكر صفات جلاله: ﴿ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾، وهذه الآيات قال فيها بعض أهل العلم: قطعت عروق شجرة الشرك، «فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يعتقد أنه يحصل له به من النفع، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع: إما مالكٌ لما يريده عابده منه، فإن لم يكن مالكًا كان شريكًا للمالك، فإن لم يكن شريكًا له كان مُعينًا له وظهيرًا، فإن لم يكن معينًا ولا ظهيرًا كان شفيعًا عنده، فنفى سبحانه المراتب الأربع نفيًا مترتبًا متنقلًا من الأعلى إلى ما دونه، فنفى الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التي يظنها المشرك، وأثبت شفاعةً لا نصيب فيها لمشرك، وهي الشفاعة بإذنه، فكفى بهذه الآية نورًا وبرهانًا ونجاةً وتجريدًا للتوحيد، وقطعًا لأصول الشرك ومواده لـمَن عَقَلَها، والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها»[1].

قال عز وجل: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَـٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١ / ٣٤٣).

﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦)﴾ [الرعد]، وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠)﴾ [النحل].

ثاني عشر: آياتٌ فيها ذكر صفات عظمته جل جلاله وأفعاله الدالة على كمال اقتداره.

من أبلغ ما يُحدِث التعظيم في قلب العبد ومن أقصر طرقه الآياتُ التي فيها ذكر صفات عظمته جل جلاله، وأفعاله الدالة على كمال اقتداره سبحانه وتعالى، فإن مقتضاها معرفته عز وجل عظيمًا! كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤)﴾ [الأعراف]، وقوله: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢)﴾ [فصلت].

و«لن تحضره عظمة المتكلم ما لم يتفكر في صفاته وجلاله وأفعاله، فإذا حضر بباله العرش والكرسي، والسماوات والأرض وما بينهما من الجن والإنس والدواب والأشجار، وعلم أن الخالق لجميعها والقادر عليها والرازق لها واحد، وأن الكل في قبضة قدرته، مترددون بين فضله ورحمته، وبين نقمته وسطوته، إن أنعم فبفضله، وإن عاقب فبعدله، وأنه الذي يقول: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي، وهذا غاية العظمة والتعالي، فبالتفكر في أمثال هذا يحضر تعظيم المتكلم ثم تعظيم الكلام»[1].

ثالث عشر: آياتٌ تنفي عنه سبحانه وتعالى النقص إجمالاً وتفصيلاً.

من دواعي التعظيم الآياتُ التي تنفي عنه سبحانه وتعالى النقص إجمالًا وتفصيلًا، كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١)﴾ [الشورى]، وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (١ / ٢٨١).

سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم]، وقوله عز وجل: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص]، وقوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء]، وقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾ [الجن]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ [مريم]، وكل نفي في القرآن عن الله عز وجل فإنه يتضمن كما قرر المحققون الكمال والتعظيم.

قال ابن تيمية: «الله سبحانه موصوف بالإثبات والنفي، فالإثبات كإخباره بأنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه سميع بصير، ونحو ذلك، والنفي كقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾، وينبغي أن يُعلم أن النفي ليس فيه مدح كمال إلا إذا تضمن إثباتًا، وإلا فمجرد النفي ليس فيه مدحٌ ولا كمال، لأن النفي المحض عدمٌ محض، والعدم المحض ليس بشيء، وما ليس بشيء فهو كما قيل: ليس بشيء، فضلًا عن أن يكون مدحًا أو كمالًا، ولأن النفي المحض يُوصف به المعدوم والممتنع، والمعدوم والممتنع لا يُوصف بمدحٍ ولا كمال، فلهذا كان عامة ما وصف الله به نفسه من النفي متضمنًا لإثبات مدح كقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾، فنفي السِّنَة والنوم يتضمن كمال الحياة والقيام، فهو مبين لكمال أنه الحي القيوم، وكذلك قوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾، أي: لا يكرثه ولا يثقله، وذلك مستلزمٌ لكمال قدرته وتمامها، وبخلاف المخلوق القادر إذا كان يقدر على الشيء بنوع كلفة ومشقة، فإن هذا نقصٌ في قدرته، وعيبٌ في قوته، وكذلك قوله: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣]، فإن نفي العزوب مستلزمٌ لعلمه بكل ذرة في السماوات والأرض، وكذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة ق]، فإن نفي مَسّ اللغوب الذي هو التعب

والاعياء دلَّ على كمال القدرة ونهاية القوة، بخلاف المخلوق الذي يلحقه من التعب والكلال ما يلحقه»[1].

رابع عشر: آيات فيها إضافة بعض المخلوقات إلى الله تعالى تعظيماً.

من أوجه التعظيم اللطيفة في القرآن تعظيمُ الله عز وجل بعضَ مخلوقاته بنسبتها إليه نسبةَ تشريفٍ وتعظيم، كبيت الله، وناقة الله، وروح الله أو "روحي" أو "روحنا"، وهذا التعظيم للمضاف بإضافته إلى الله عز وجل قد جرى في أساليب كلام العرب، كما في قول عاتكة بنت زيد:

فللهِ عينًا من رأى مثله فتى أكـرَّ وأحـمى في الهياج وأصبرا

قالوا: «قولها "فللهِ عينًا" تعجب، وهي في تعظيم الشيء ينسبونه إلى الله عز وجل، وإن كانت الأشياء كلها له تعالى وفي ملكته»[2].

أرأيت كيف كانت إضافة تلك المخلوقات إلى الاسم الشريف تعظيمًا لها، فكيف بالاسم نفسه، وكيف بالمسمى!

خامس عشر: آيات تعظيم أسماء الله عز وجل.

مما يدل على عظمة الله عز وجل تدبُّرُ الآيات التي فيها تعظيم أسمائه تعالى، وأسماؤه عز وجل حسنى، ليست أعلامًا محضة، كما قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾[الأعراف: ١٨٠]، وقال: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، ومَن تدبَّر كتاب الله تعالى عظَّم أسماءه عز وجل من جهة كونها حسنى متضمنةً صفات الجلال والعظمة والكمال، ومن جهة كونها مباركة؛ قال الله عز وجل: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [الرحمن]،

---

(١) التدمرية لابن تيمية (ص: ٢٠ - ٢١).

(٢) شرح ديوان الحماسة لأبي علي المرزوقي (ص: ١١٠٢).

وذكر ابن الأنباري في معنى "تبارك اسم الله" أنه "تفاعل" من البركة، والمعنى أن البركة تُكسب وتُنال بذكر اسم الله[1].

وجُعلت البركة في الطعام الذي يُذكر اسم الله عليه، وجُعل ذكر اسم الله سببًا لوقاية المولود -إذا قُدِّر بعد إتيان الأهل- من الشيطان، وجُعل ذكر اسم الله شفاءً من الأدواء، إلى غير ذلك مما ثبتت به الأذكار النبوية التي تفيد خواصَّ لذكر اسم الله عز وجل، وهذا المذكور يقتضي ضربًا من تعظيم الله عز وجل بأسمائه غير تعظيم الله بوصفه، وهذا ضربٌ آخر من ضروب التعظيم لله تعالى في القرآن مندرجٌ في النوع التاسع السالف.

قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٥٤﴾ [الأعراف]، وقال: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾ [المؤمنون]، وقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان]، وقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ۝١٠﴾ [الفرقان]، وقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ۝٦١﴾ [الفرقان]، إلى غير ذلك من الآيات، ومعنى "تبارك الله"؛ أي: زاد خيره وكثر عطاؤه، والله عز وجل تبارك في نفسه لعظمة أوصافه وكمالها، وبارك في غيره بإحلال الخير الجزيل والبر الكثير، فكل بركةٍ في الكون فمن آثار رحمته سبحانه وتعالى، وقد جعل لها أسبابًا شرعية منها: ذِكْرُ اسمِه عز وجل، كما قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٧٨﴾، وهذا إنما شُرع لما في ذكر اسمه من البركة والخير العظيم، ولما في ذكر اسمه عز وجل -حيث شُرع ذكره- من التأثير.

هذا وفي القرآن غير ذلك من الدلالات التي تدعو من تدبرها إلى تعظيم الله عز وجل، وتحمل على إجلاله عز سلطانه وتقدس شأنه، بل عامة سور القرآن العظيم تدعو إلى تعظيم الله جل جلاله، حتى قال بعض الباحثين: «إن كل آيةٍ في القرآن فهي متضمنة لتعظيم الله والإيمان به، شاهدة به، داعية إليه»[2]، ثم بينَّ وجه ذلك فقال: «فإن القرآن؛

(١) انظر الزاهر في معاني كلمات الناس لابن الأنباري (١ / ٥٣).

(٢) هو الدكتور توفيق علي زبادي في بحثه: بناء سورة الحاقة على تعظيم الله (ص: ٢٤٧).

إما خبرٌ عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو التعظيم والإيمان العلمي الخبري، وإما دعوةٌ إلى عبادته وحده لا شريك له وخلعِ كل ما يُعبد من دونه، فهو التعظيم والإيمان الإرادي الطلبي، وإما أمرٌ ونهيٌ وإلزامٌ بطاعته في نهيه وأمره، فهي حقوق التعظيم ومُكَمِّلاتُه، وإما خبرٌ عن كرامة الله للمعظمين له المؤمنين به... وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء تعظيمه والإيمان به، وإما خبرٌ عن أهل الشرك... وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم في العقبى من العذاب، فهو خبرٌ عمن خرج عن تعظيمه والإيمان به، فتبيَّن بذلك أن القرآن كله في تعظيم الله والإيمان به وحقوقه وجزائه وفي شأن من لا يرجون لله عظمة وجزائهم.

فإذا تدبَّر العبد السورة القرآنية وجد فيها:

١- مظاهر عظمة الله عز وجل.

٢- حقوق هذه العظمة.

٣- جزاء هذه العظمة في الدنيا والآخرة.

٤- أفانين تقرير عظمة الله عز وجل»[1].

بل إعجاز آياته وإحكامها مستلزمٌ لعظمة المتكلم بها، وحَسْبُك أن اسمها "آية"!

وبالجملة، فلن يجد أحدٌ في تعظيم الله تعالى أبلغ من كتابه، وقصارى كل كاتب أن ينتهي إليه، وينسج في التأليف تقريبًا عليه.

(١) المصدر السابق (ص: ٢٤٧ - ٢٤٨).

الخاتمة:

الوصية في الختام لكل صاحب قلم قد مَنَّ الله عليه بفضلِ بيانٍ مع العلم أن يكتب في هذا الصدد؛ إما جمعًا أو تحريرًا أو إشباعًا لبعض الموضوعات المطروقة في هذا الكتاب أو غيره مما كُتب عن تعظيم الله عز وجل.

فالحاجة إلى التذكير بهذا الموضوع تستمد عظمتها من أمور؛ منها عظمته وشأنه ومكانه من غيره، ومنها إطباق الغفلة على كثيرٍ من الناس، في عصرٍ عَظَّم كثيرٌ منهم فيه المادة وطغت على نظره.

وحبذا أن يعتني بعض المتخصصين بإنشاء بحوث متخصصة في التعظيم، فمن كان متخصصًا في التربية فببحوث تفيد في تربية الأجيال على تعظيم خالقها، ومن كان متخصصًا في بعض العلوم التجريبية كالهندسة أو الطب أو الفيزياء فببحوث تقرر عظمة الرب عز وجل متصلة بتلك العلوم، وهكذا المتخصصون في العلوم الإنسانية، كلٌّ بحسب تخصصه، وعلى رأس هؤلاء: المتخصصون في العلوم الدينية، فجمع آيات التعظيم والحديث عنها موضوعٌ ينبغي أن يكتب فيه مَن لهم عناية بالتفسير وعلوم القرآن، ودراسة الأحاديث روايةً ودرايةً ينبغي أن ينتصب لها بعض من لهم عناية بالسُّنة، وتحقيق صفة العظمة لله عز وجل ودراسة آراء الفرق الكلامية فيها موضوعٌ يصلح للمختصين في أصول الدين، وطرق الدعوة إلى تعظيم الله عز وجل أو بعض ما يتبع تعظيمه مجالٌ رحب للمختصين في الدعوة والإعلام.

والوصية لطلاب العلم والدعاة والمربين وسائر المثقفين بأن يعتنوا بتعظيم الله عز وجل فيحققوه في نفوسهم، تحقيقًا يجعلهم قدوات لمن يليهم، ثم ليجتهدوا في تحقيقه عند مخالطيهم من طلاب ومَدْعُوِّين وغيرهم، وليكن ذلك هَمَّهم، ولترتفع فيه همتهم، وليستنفذوا فيه جهدهم، فإن الحاجة ماسة، والتقصير في هذا الشأن شديد، إذا نظرنا إلى ما يجب له من التربية والدعوة والتعليم.

ولتكن جهود المربين والدعاة وطلاب العلم في شأن التعظيم متخصصة متنوعة:

منها: التربوية التي تراعي التوجيه والملاحظة وبذل النصيحة حيث ناسب بذلها، وتشتمل أيضًا على البرامج المنظمة: قراءة في رسالة أو كتاب يعتني بتعظيم الباري جل جلاله، أو ترتيب زيارات لمن يُذكِّر بعظمته من العلماء والدعاة والوعاظ، أو استضافة لهم، مع ربط بعض البرامج الترويحية بعظمة الله ولا سيما التي يخرج فيها الناس إلى البرية أو إلى مناطق مرتفعاتٍ جبلية، حيث تبدو الطبيعة وتتجلى مظاهر العظمة والقدرة، ومن ذلك ترتيب زياراتٍ إلى معارض تُعنى بهذا الشأن، واستنساخ هدفها، وإنشاء نظائر لها، وقد كان أحدها بالمدينة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، اسمه: "معرض أسماء الله الحسنى"؛ يظهر فيه أنَّ قصد من أنشؤوه تعظيم الباري جل وعز[1].

ومنها: الدعوية، وينبغي أن تكون مسموعة ومقروءة، فالمسموعة بالدرس والمحاضرة والخطبة والكلمة والكليمة القصيرة، والمقروءة بأشكال الكتابة: كُتبًا وكُتيبات ومطويات ومقالات وسائر أنواع الكتابة الإعلامية، بحيث يبرز ما يدعو لتعظيم الله في بعض الأخبار المناسبة، والتحقيقات، والمقالات، والمقابلات.

ومنها: التعليمية، فيتخير المشتغلون بذلك الكتب المناسبة للدرس والتعليق ويتواصون بها، وذلك في المجالس العلمية غير النظامية، وأيضًا بالدأب على إدخال تعظيم الله في قائمة أهداف واضعي المقررات النظامية للثقافة الإسلامية والعلوم الشرعية.

وفي جميع ذلك يُستفاد من وسائل المجتمعات الحاضرة، ومنابرها المعاصرة، من منصات تعليم شبكية، وبرامج تواصل اجتماعية، تُبَث فيها المنتجات المختلفة: تربوية، ودعوية،

---

(١) راجع التعريف بمعرض أسماء الله الحسنى في موقع (ويكيبيديا)، وللمعرض موقع خاص وحسابات في مواقع التواصل، وتُشرِف عليه شركة (سمايا).

وتعليمية، فيُستفاد منها في إبلاغها، وتحقيق أهداف أصحابها بحسب مناسبتها وجدواها[1]، ولتحقيق ذلك لا بد أن يشتغل بعض المربين والدعاة وطلاب العلم ويعاونهم مختصون بإعداد مواد نوعية مرئية ومقروءة ومسموعة، كإعداد المقاطع الاحترافية؛ الصوتية والمرئية، والتصاميم الثابتة، ومخططات المعلومات البيانية، والرسوم المتحركة البيانية، بحيث تخدم كلًّا من أهداف التربية والدعوة والتعليم، تناسب منتجات كل مساق، وتفي بمتطلبات كل واحدة منهن على حدة.

هذا والله نسأل أن يوفقنا لتعظيمه، وأن يُرَقِّينا مراتبَ تبجيله، وأن يُلزمنا إجلاله، وأن يزيدنا معرفةً بجلاله، وأن يجعلنا ممن إذا أَمَر أتى، وإذا نَهى انتهى، ونعوذ به أن نُذكِّر به وننسى، والحمد لله أولًا وآخرًا، وصلى الله وسلم على نبينا وعلى آله وصحبه ومن بهم اقتدى.

(١) وهي متغيرةٌ يجب أن تخضع للتقييم بعد كل مدة، ويُنظَر في الأجدى وما استجد منها.

ثبت المصادر والمراجع

- أحسن ما سمعت لأبي منصور الثعالبي، طبعة دار الكتب العلمية، الأولى ١٤٢١هـ.
- إحياء علوم الدين للغزالي، طبعة دار المعرفة.
- الآداب الشرعية والمنح المرعية لابن مفلح، طبعة عالم الكتب.
- آداب النفوس للمحاسبي، تحقيق عبد القادر عطا، طبعة دار الجيل، الأولى، ١٩٨٤م.
- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل للألباني، طبعة المكتب الإسلامي، الثانية ١٤٠٥هـ.
- الاستقامة لابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الأولى ١٤٠٣هـ.
- الأسماء والصفات للبيهقي، تحقيق عبد الله الحاشدي، طبعة مكتبة السوادي، ١٤١٣هـ.
- أصل صفة الصلاة للألباني، طبعة مكتبة المعارف، الأولى ١٤٢٧هـ.
- أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن لمحمد الأمين الشنقيطي، طبعة دار الفكر، ١٤١٥هـ.
- اعتلال القلوب للخرائطي، تحقيق حمدي الدمرداش، طبعة نزار الباز، الثانية ١٤٢١هـ.
- إعراب القرآن لأبي جعفر النحاس، تحقيق عبد المنعم خليل إبراهيم، طبعة دار الكتب العلمية، الأولى ١٤٢١هـ.

- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن القيم، طبعة دار المعرفة، الثانية ١٩٧٥م.
- الإفصاح عن معاني الصحاح لابن هبيرة، تحقيق فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الوطن، ١٤١٧هـ
- الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي، طبعة دار الهلال، الأولى ١٩٩٣م.
- أمراض القلوب وشفاؤها، طبعة المطبعة السلفية بالقاهرة، الثانية ١٣٩٩م.
- إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل لبدر الدين ابن جماعة، تحقيق وهبي الألباني، طبعة دار السلام، الأولى، ١٩٩٠م.
- بحر الفوائد «معاني الأخبار» للكلاباذي، تحقيق محمد إسماعيل، وأحمد المزيدي، طبعة دار الكتب العلمية، الأولى، ١٤٢٠هـ
- البحر المحيط في التفسير لأبي حيان، تحقيق صدقي محمد جميل، طبعة دار الفكر، ١٤٢٠هـ
- البداية والنهاية لابن كثير، تحقيق علي شيري، طبعة إحياء التراث، الأولى ١٤٠٨هـ
- بدائع الفوائد لابن القيم، تحقيق علي العمران، طبعة عالم الفوائد، الأولى ١٤٢٥هـ
- بريقة محمودية في شرح طريقة محمدية وشريعة نبوية في سيرة أحمدية للخادمي، تحقيق محمد عمران، طبعة مصطفى البابي، الأولى ١٣٤٨هـ
- البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي، تحقيق وداد قاضي، طبعة دار صادر، الأولى ١٤١٩هـ
- بناء سورة الحاقة على تعظيم الله عز وجل ومقتضى العبودية، بحث للدكتور توفيق زبادي منشور في مجلة تدبر، العدد الثامن، السنة الرابعة، رجب ١٤٤١هـ.
- بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية لابن تيمية، مجموعة من المحققين، طبعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف، الأولى ١٤٢٦هـ.
- البيان في عدِّ آي القرآن لأبي عمرو الداني، تحقيق غانم قدوري، منشورات دار الوثائق بالكويت

- تاريخ الطبري، طبعة دار التراث، الثانية ١٣٨٧هـ.
- تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، طبعة دار الكتب العلمية، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، الأولى ١٤١٧هـ.
- تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، طبعة دار الفكر ١٤١٥هـ.
- التبصرة لابن الجوزي، تحقيق مصطفى عبد الواحد، طبعة دار الكتاب المصري اللبناني، الأولى ١٣٩٠هـ.
- التحرير والتنوير لابن عاشور، طبعة الدار التونسية، ١٩٨٤م
- التدمرية لابن تيمية، طبعة مكتبة السنة المحمدية.
- التذكرة في الوعظ لابن الجوزي، تحقيق أحمد عبد الوهاب فتيح، طبعة دار المعرفة، الأولى ١٤٠٦هـ.
- تعظيم الله جل جلاله: تأملات وقصائد للشيخ أحمد المزيد، طبعة مدار الوطن، الأولى ١٤٢٣هـ.
- تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر، تحقيق عبد الرحمن الفيروائي، طبعة مكتبة الدار، الأولى ١٤٠٦هـ.
- تفسير ابن أبي حاتم، تحقيق أسعد الطيب، طبعة مكتبة نزار الباز، الثالثة ١٤٠٩هـ.
- تفسير ابن عادل «اللباب في علوم الكتاب»، تحقيق عادل عبد الموجود وعلي معوض، طبعة دار الكتب العلمية، الأولى ١٤١٩هـ.
- تفسير ابن عطية «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز»، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، طبعة دار الكتب العلمية، الأولى ١٤٢٢هـ.
- تفسير ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، تحقيق سامي السلامة، طبعة دار طيبة، الثانية ١٤٢٠هـ.
- التفسير البسيط للواحدي، عمادة البحث العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ.

- تفسير الرازي «مفاتيح الغيب»، طبعة دار الكتب العملية، الأولى ١٤٢١هـ.
- تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، تحقيق عبد الرحمن اللويحق، طبعة مؤسسة الرسالة، الأولى ١٤٢٠هـ.
- تفسير السلمي «حقائق التفسير»، تحقيق سيد عمران، طبعة دار الكتب العلمية، الأولى، ١٤٢١هـ.
- تفسير الطبري «جامع البيان عن تأويل آي القرآن»، تحقيق عبد الله التركي، طبعة دار هجر، الأولى ١٤٢٢هـ.
- تفسير القرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، الثانية ١٣٨٤هـ.
- تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين النيسابوري، تحقيق زكريا عميران، طبعة دار الكتب العلمية، الأولى ١٤١٦هـ.
- التفسير من سنن سعيد بن منصور، تحقيق سعد آل حميد، طبعة دار الصميعي، الأولى ١٤١٧هـ.
- تهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق محمد مرعب، طبعة دار إحياء التراث العربي، الأولى، ٢٠٠١م.
- التوبة لابن أبي الدنيا، تحقيق: مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن، مصر.
- التوحيد لابن خزيمة، تحقيق عبد العزيز الشهوان، طبعة مكتبة الرشد، الخامسة ١٤١٤هـ.
- جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، تحقيق أبي الأشبال الزهيري، طبعة دار ابن الجوزي، الأولى ١٤١٤هـ.
- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن القيم، طبعة دار المعرفة ١٤١٨هـ.
- حجة الله البالغة للدهلوي، تحقيق السيد سابق، طبعة دار الجيل، الأولى ١٤٢٦هـ.
- الحجة في بيان المحجة لأبي القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل الأصبهاني المعروف بقوَّام السنة، تحقيق محمد بن ربيع المدخلي، طبعة دار الراية ١٤١٩هـ.

- الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية لابن سعدي، طبعة دار ابن القيم، الثانية، ١٤٠٧هـ.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصبهاني، طبعة دار الكتاب العربي، الرابعة، ١٤٠٥هـ.
- درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود، الثانية ١٤١١هـ.
- ذخيرة الحفاظ لابن القيسراني، تحقيق عبد الرحمن الفريوائي، طبعة دار السلف، الأولى ١٤١٦هـ.
- ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب، تحقيق عبد الرحمن العثيمين، طبعة العبيكان، الأولى، ١٤٢٥هـ.
- ربيع الأبرار ونصوص الأخيار للزمخشري، تحقيق عبد المجيد دياب وآخرين، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، الأولى ١٩٩٢م.
- رياض الصالحين للنووي، تحقيق ماهر الفحل، طبعة دار ابن كثير، الأولى ١٤٢٨هـ
- زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي، طبعة المكتب الإسلامي الثالثة، ١٤٠٤هـ
- الزاهر في معاني كلمات الناس لأبي بكر الأنباري، تحقيق حاتم الضامن، طبعة مؤسسة الرسالة، الأولى ١٤١٢هـ.
- الزهد الكبير للبيهقي، تحقيق عامر أحمد حيدر، طبعة مؤسسة الكتب الثقافية، الثالثة ١٩٩٦م.
- الزهد لابن المبارك، تحقيق الأعظمي، دار الكتب العلمية.
- الزهد لأحمد بن حنبل، تحقيق محمد شاهين، طبعة دار الكتب العلمية، الأولى ١٤٢٠هـ
- السلسلة الصحيحة للألباني، طبعة مكتبة المعارف، الأولى.
- سنن ابن ماجه، تحقيق الأرناؤوط، طبعة مؤسسة الرسالة، الأولى ١٤٣٠هـ.

- سنن أبي داود، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، طبعة المكتبة العصرية.
- سنن الترمذي، تحقيق أحمد شاكر وآخرين، طبعة مصطفى البابي، الثانية ١٣٩٥هـ.
- السنن الكبرى للبيهقي، تحقيق محمد عبد القادر عطا، طبعة دار الكتب العلمية، الثالثة ١٤٢٤هـ.
- سنن النسائي، تحقيق عبد الفتاح أبي غدة، طبعة مكتب المطبوعات الإسلامية، الثانية ١٤٠٦هـ.
- شرح ديوان الحماسة لأبي علي المرزوقي، تحقيق عبد السلام هارون وأحمد أمين، طبعة دار الجيل، الأولى، ١٤١١هـ.
- شرح رياض الصالحين لابن عثيمين، طبعة دار الوطن، الأولى ١٤٢٦هـ.
- شرح نهج البلاغة لابن أبي حديد، تحقيق محمد النمري، طبعة دار الكتب العلمية، الأولى ١٤١٨هـ.
- شعب الإيمان للبيهقي، تحقيق د. عبد العلي حامد، طبعة مكتبة الرشد، الأولى ١٤٢٣.
- الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض، طبعة دار الفكر، ١٤٠٩هـ.
- الصارم المسلول على شاتم الرسول لابن تيمية، تحقيق محمد الحلواني ومحمد شودري، طبعة دار ابن حزم، الأولى ١٤١٧هـ.
- الصحاح للجوهري، تحقيق أحمد عطار، طبعة دار الملايين، الرابعة ١٤٠٧هـ.
- صحيح ابن حبان «ترتيب ابن بلبان»، تحقيق شعيب الأرناؤوط، طبعة مؤسسة الرسالة، الثانية ١٤١٤هـ.
- صحيح الأدب المفرد للألباني، طبعة دار الصديق، الرابعة ١٤١٨هـ.
- صحيح البخاري، تحقيق محمد زهير الناصر، طبعة دار طوق النجاة، الأولى ١٤٢٢هـ.
- صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة دار إحياء التراث.
- صفة الصفوة، لابن الجوزي، تحقيق أحمد بن علي، طبعة دار الحديث، ١٤٢١هـ.

- صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم من التكبير إلى التسليم كأنك تراها للألباني، طبعة مكتبة المعارف.
- الصفدية، تحقيق محمد رشاد سالم، طبعة دار الفضيلة، ١٤٢١هـ.
- صيد الخاطر لابن الجوزي، تحقيق عبد القادر عطا، طبعة دار الكتب العلمية، الأولى ١٤١٢هـ.
- ضعيف سنن الترمذي للألباني، طبعة المكتب الإسلامي، الأولى ١٤١١هـ.
- العزلة للخطابي، طبعة المطبعة السلفية، الثانية ١٣٩٩هـ.
- العقيدة الطحاوية لأبي جعفر الطحاوي، تحقيق الألباني، طبعة المكتب الإسلامي، الثانية ١٤١٤هـ.
- علل الحديث لابن أبي حاتم، تحقيق مجموعة من الباحثين، طبعة مطابع الحميضي، الأولى ١٤٢٧هـ.
- علل الدارقطني «العلل الواردة في الأحاديث النبوية»، تحقيق محفوظ الرحمن السلفي، طبعة دار طيبة، الأولى ١٤٠٥هـ.
- علل الدارقطني «العلل الواردة في الأحاديث النبوية»، تحقيق محمد الدباسي، دار ابن الجوزي، الأولى ١٤٢٧هـ.
- الفتاوى الكبرى لابن تيمية، طبعة الكتب العلمية، الأولى ١٤٠٨هـ.
- فتاوى اللجنة الدائمة «المجموعة الأولى والمجموعة الثانية»، جمع وترتيب أحمد الدويش، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء.
- فتاوى نور على الدرب للشيخ ابن باز، جمع وترتيب محمد الشويعر.
- الفقه على المذاهب الأربعة للشيخ عبد الرحمن الجزيري، طبعة دار الكتب العلمية، الثانية ١٤٢٤هـ.
- الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة للشوكاني، تحقيق عبد الرحمن المعلمي،

طبعة دار الكتب العلمية.

- الفوائد لابن القيم، تحقيق محمد عزير شمس، طبعة عطاءات العلم - دار ابن حزم، الرابعة ١٤٤٠هـ.
- قواعد الأحكام في مصالح الأنام للعز بن عبد السلام، تحقيق محمود بن التلاميذ الشنقيطي، طبعة دار الكتب العلمية.
- قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد لأبي طالب المكي، تحقيق الكيالي، طبعة دار الكتب العلمية الثانية ١٤٢٦هـ.
- لسان العرب لابن منظور، طبعة دار صادر، الثالثة ١٤١٤هـ.
- اللطائف لابن الجوزي، تحقيق محمد سنبل، طبعة دار الصحابة للتراث، الأولى ١٤١٠هـ.
- مجموع الفتاوى لابن تيمية، تحقيق ابن قاسم، طبعة مجمع الملك فهد، ١٤١٦.
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم، تحقيق الفقي، طبعة دار الكتاب العربي، الثانية ١٣٩٣هـ.
- مسائل الإمام أحمد من رواية ابنه عبد الله، طبعة زهير شاويش، المكتب الإسلامي، الأولى ١٤٠١هـ.
- المستدرك للحاكم، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، طبعة دار الكتب العلمية، الأولى ١٤١١هـ.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، طبعة مؤسسة الرسالة، الأولى ١٤٢١هـ.
- مصنف ابن أبي شيبة، تحقيق كمال الحوت، طبعة مكتبة الرشد، الأولى ١٤٠٩هـ.
- معالم السنن للخطابي، طبعة المطبعة العلمية، الأولى ١٣٥١هـ.
- معجم ابن المقرئ، تحقيق عادل سعد، مكتبة الرشد، الأولى ١٤١٩هـ.
- المعجم الصغير للطبراني، تحقيق محمد شكور، طبعة المكتب الإسلامي، الأولى ١٤٠٥هـ.
- المعجم الكبير للطبراني، تحقيق حمدي السلفي، طبعة مكتبة ابن تيمية، الثانية.

- معجم مصطلحات العلوم الشرعية، لمجموعة من المؤلفين، طبعة مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية، الثانية ١٤٣٩هـ.
- المعرفة والتاريخ ليعقوب بن سفيان الفسوي، تحقيق أكرم العمري، طبعة مؤسسة الرسالة، الثانية ١٤٠١هـ.
- مفتاح دار السعادة لابن القيم، طبعة دار الكتب العلمية.
- منازل السائرين لأبي إسماعيل الهروي، طبعة دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ.
- مناقب الشافعي للبيهقي، تحقيق السيد أحمد صقر، طبعة مكتبة دار التراث، الأولى ١٣٩٠هـ.
- منهاج السنة النبوية لابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، طبعة مؤسسة قرطبة، الأولى.
- النشر في القراءات العشر لابن الجزري، تحقيق علي محمد الضباع، دار الكتب العلمية.
- نونية ابن القيم: الكافية الشافية، طبعة مكتبة ابن تيمية، الثانية ١٤١٧هـ.
- النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير، تحقيق طاهر أحمد ومحمود الطناحي، طبعة المكتبة العلمية.
- الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب، تحقيق مجموعة من الباحثين، طبعة مجمع بحوث الكتاب والسنة، الأولى ١٤٢٩هـ.
- الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم، تحقيق سيد إبراهيم، طبعة دار الحديث، الثالثة ١٩٩٩م.



المحتويات:



وإن عظمة الله جل في علاه لا يحيط بها شيء، ولا يَقْدُر قدرها إنسٌ ولا جانّ، ومن حقه علينا بذل الجهد في التعرف إليه، وتعريفه إلى الناس.

وإن من أولى ما اشتغل به الدعاة والمربون أن يُعَرِّفوا الناس بالله، ويزيدوا من عظمته في نفوسهم، فإن المعظِّم لأي أحد يضم إلى تعظيمه هيبةً وإجلالًا ومحبة، فمن عَظَّم الله سبحانه، هابه وأجلَّه وأحبه، وكفى بهذا داعيًا للمرء إلى طاعة الله، ومُرَغِّبًا له ومُرَهِّبًا في اتباع أوامر الله واجتناب نواهيه، في الفرائض والنوافل، مُتَلَمِّسًا رضاه ومُحِبًّا له.



الرياض - حي المغرزات
٠١١٤٥٤٤٧٦٣
malem@tdabbor.com
٠٥٥٧٢٦١٩٩٩

